عندما أعيد خلقنا

رواية

غفران سليمان كوسا

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : عندما أعيد خلقنا

اسم المؤلف : غفران سليمان كوسا

الجنسية : سوريا

التصنيف الأدبي : رواية

الطبعة الأولى : 2020

الترقيم الدولي : 9 – 15 - 6792 – 977 - 978

رقم الإيداع : 2604 / 2020

تدقيق لغوي : هبة ماردين

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

الإهداء

إلى سنابل الضوء
إلى الزهور التي ذبلت قبل أن تتفتح
إلى زوار الأرض

غفران سليمان كوسا

****

هيولي

(١)

آراءٌ فلسفيةٌ عديدةٌ ومتضاربةٌ حولَ التشكيل الهيولي ووجوده، وسماته، فاعليته وأصله فكان الأصل والمادة... والجوهر... شعوراً وحساً... وبداية ونهاية، سر الأسرار، والقوة المحركة

قال الشاعر ظاهر الجذري محاسنه هيولي كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال.

ماجت الدنيا بين سواد وماء وتمخضت الأكوان فأنجبت المجرات، وولدت الأرض من ضلع التكوين، ثم ظهر عليها بقامته ابنها الإنسان العاقل يومها تعددت الرؤى والأوجاع... على مدخل هذا التكوين فاجأها المخاض وظهر أجدادي منتصبين، حاربوا القساوة وسجلوا على خيوط الشمس وعلى الصخر كل ما تقدم من التاريخ.

مرت الأيام وتناقلت جيناتهم الأجيال انقسموا بين القارات تقاتل الإخوة على الامتيازات تضاربت المصالح وابتدأ الخلاف

استحضروا الآلهة لتحل لهم هذا الخلاف ودائماً الغرباء يزيدون في العقد ليظهر عملهم أكبر من الحقيقة ويغزوه

الخيال، ثم تتابع الخلق وابتدأ القتال مع أولاد آدم صار الميدان مفتوحاً للإجرام، فقابيل تجرأ وذبح هابيل على لذة النساء التي لم يعش ليكتشفها هابيل...

وتعددت الأسباب لم يكن الدمار والنحر ورياح صرصر كافية لكن ذكاء جدنا إبراهيم كان فطرياً وقد أوجد أول نظرية في الملاحظة واتخذ قواه الخارقة لإدراك العلاقات بين الأشياء ليربطها ببحثه الدائم عن رب جده نوح الذي ضيعته القبائل التي ينتمي لها... لتتاجر في بيع آلهة لا تغضب لا تحرق لا تفتعل بالمخطئين كل أشكال العذاب وعلم بذكائه والوحي أن الرجال الملائمين ليكونوا سر الله هم على الأرض، لا في السماء، ولكن يجب أن يثبتوا له أنهم مخلصين، وجاءت الرؤيا وسن سكينه ولولا إيماني بالرسالات لقلت وشت سارة في أذنيه بالقتل...

وتابع بذبح الكبش ورمي إسماعيل في الصحراء لتكتمل رحلة التكوين المنتظرة لهذا الأب وظهر ما يسمى شرق وظهر الماء الدافق كأن الأرض تضاجع زوارها الجدد... من هذا الماء المجبول ببعض الطين تكون آدم من قبل وظهر من أجل إسماعيل بئر زمزم من جديد. ومن بعده العرب أجمعين بين يوم وليلة تغيرت الأسماء وأطلق النبي إبراهيم

اسم عربي على أولاد إسماعيل في أول زيارة له بعدما هجره وأمه في ركن من زوايا الصحراء أكسبت تغيرات هذه الدنيا على إبراهيم عظمة مدهشة عن طريق اكتشافاته العظيمة في الغوص في لب الإنسان وفهمه، وصار حكاية في إنجيل موسى والقرآن الكريم المنزّل من الله العظيم مهما شكك وتداول المتمردين؟

وتتالت الرسالات... عفواً المعارك؛ فلم يكن موسى بعيداً عن القتل فقد قتل فرعونياً قبل رسالته وما كان إذا موسى أوَلَمْ يأتي هو بالألواح؟ تعودنا عدم التفكير. لم يكن فرعونياً ولا إسرائيلياً لكنه نبيٌّ حمل رسالة أليست كما تعلمنا الديانة اليهودية التي نقدرها لأنها من ديانات التوحيد، وأنا مجرد مدرس تاريخ قد أكون مدللاً وغبياً لكنني أعي أن موسى أسس ديانة من تركات إبراهيم ولكنها نزلت كالمطر عليه من جديد؟ وما كان الفرعون إلا ربّاً بشرعه وقوته وسلطته.

كان موسى عبداً مملوكاً ومولىً تربى في حضن الفرعون لكنه أسس جيشاً جباراً أغرق الله له بالحجة فرعونه وقد كان هذا الأخير سباق في طبيعة التعذيب، فهو من ابتكر قطع يد ورجل من خلاف تنفس وشرب ونام ودفن بعد

غرقه في التربة العربية... القتل هواء يسير معنا فقد تنوعت أشكاله ومن هذه الأشكال قصة صلب عيسى رسول الله. لم يصلب وشبه لهم لكن إجرام الصلب وقع على أرضنا... محمد رسول الله وخاتم أنبيائه ابتدأت دعوته برؤوس كثيرة ولم ينتهِ قطعها بعد إسرائه؟ ولا بعد موته فإن تكويننا لا يكتمل إلا على بحار الدم، وهل في الدنيا دم أطهر من دم عليٍّ؟ أول فتى آمن بمحمد ونام في سريرة وزوج ابنته. وهل من يقتل عليّاً يستثني أحداً؟ وهل بعد عليٍّ من لا يقتل؟ وبعده ابن رسول الله، وحبيبه ابن عليّ وفاطمة وأولادهم وبناتهم وأين في عقر دار أتباعهم صادقون يرددون قلوبنا معكم وسيوفنا عليكم... هذا ما يسمونه جينات الإنسان المعذب فقط تنتقل بيننا... سؤالٌ يقلقني وأنا في قمة نشوتي مع زوجة أو عشيقة لماذا تلك الشعوب التي لم تحدثنا عن وجود الله تعيش بسعادة وإنسانية وإبداع وجدي عربيٌّ من قبيلة تتنقل وراء لقمة وماء وقطعان ومعها الله تخلت بالقتل عن الكمال. خلال حقبات التاريخ المتلاطمة والراكضة نحو النهاية تأسست بلدان وشعوب وقبائل، ومنها هذه الأرض التي أعيش عليها مع عائلتي السورية الكبيرة صارت بلادي ككل

الجميلات واجهة للصفعات والقتال، وهجمت على حضارتها التي كانت قائمة جيوش الرومان أكبر إمبراطورية على وجه الأرض هكذا أكدوا في الكتب التاريخية فلاحقها خصيان الأرض والقتل وتحارب عليها الأقوياء وتقاسموها من فلسطين إلى العراق والشام وبيروت لم يسلم منها جزء من انتهاك.

أطلت عليها بيزنطة بوجه إمبراطورها هيرودوس الثاني الذي أحب بدوره أن يكون رمش المنطقة واتخذ من فلسطين مكاناً لجيوش فرعون جديد في القرن الأول من تاريخ بدأ بولادة الشقاء... وقع هيرودوس في عشق وامتلاك دمشق واتخذها عاصمة قلبه والجمال. ربما لم يجدها بكراً لكنّه انتشى باغتصابها كأجمل الجميلات.

لست إلهاً ولا مُنظِّراً سأكون معكم أنا، جميعكم أو عدوكم ويمكن نقيضكم شاب سوري أريد أن تعيشوا معي سنوات عمري وتقارنوها بسنواتكم علناً جميعاً نكون واحداً لكن بأشكالٍ متعددةٍ وهوياتٍ ملونةٍ وتقرؤون ما فيَّ من قهرٍ ومعرفةٍ، وصور أحبة قتلت ظلماً بقوانين صاغتها وحوشٌ بشرية وانتهاك فاق مظالم هتلر ونيرون وفرعون معاً سألهي مشاعركم بتفردي و مع

عشقي وخيباني آمل أن تجدوا المتعة والتسلية، ولا تملوا من سخافة الحياة وسطحيتها، ولستم بعيدين عني وربما آلامكم فاقت آلامي، وتلونت بالجميل الممتع، وهذا من ندرة طيننا.

****

(٢)

أتقنت السباحة في لج الكتب وجبت الأرض على مراكب الحروف ولم أتوقف عن البحث والترحال حتى بعد مماتي ستذهب حروفي وتهز أسرتكم أجمعين وتحملكم روحي أنتم يا من تتقنون الحب إلى كوكب لم يعرف القتل لترتاحوا، إن كان بعد الموت راحة كما أوعد وتوعدون.
اكتمل تساقط أوراق الخريف وتعرت الأشجار كفكري وأخبروني أنني ما زلت حيّاً لم أصدق فأنا رجل يموت كل يوم من الصفعات، والظلم كجميع أبناء وطني الكبير وبمعزل عن الطبقات الحاكمة التي تعيش في برزخ وحولها النجوم وكثير من حكام العرب لا تلههم مشاكل الشعوب ولا حتى الصراعات. وإحراق غزة والشام وعدن وشواء لذيذ عندهم سواء... لكنني وخلال حياتي الطويلة حاولت أن أكون ملقطاً أنزع ما استطعت من أشواك وزرعت الكثير من الورود للأحياء ووزعت منها باقات وباقات لمن اختارته الحياة قرباناً.
أحببت في حياتي الطويلة الملذات أغوتني رائحة الكتب والنساء والدخان.

رافقتني طريق وعرة ككل عربيٍّ في كل زمان ومكان من بداية التاريخ حتى يوم تعلم قابيل من الغراب كيف يدفن الميت الضعيف تحت التراب وانتهى بانتقام هابيل بعد هدوء استمر لأجيال وقيامته لبدء مرحلة جديدة يعود الزوال فيها إلى بدء جديد.

كأفعى الليل أسعى جاداً بأن يكون لي عزة في الأرض وتستقبلني يوماً بلا خطايا السماء...

ما كان لروما أن تبقى على صدور أجدادي دهوراً ولكن استسهلت اغتصاب بلادنا مع كل الجبابرة والظالمين بقتالٍ لا رحمة فيه رغم غطاء نزل علينا مع رسالات السماء الثلاث وكان لنا ثوباً مثقوباً تسولت به دنيانا عندما تلون به الدين.

ولدتني أمي في يوم جمعة من عام النكسة ويوم تثبت احتلال الصهاينة لفلسطين فحرمت الهناء عن شعبها بكل ألوانه اليهودي والمسلم والمسيحي بحربٍ بائسةٍ لمن لا يعرف تاريخها في القرن العشرين في العام ١٩٦٧م لم تكن أول نكسة ولن تكون على أية حال. وأنجبت أمي قبلي زوجاً من البنات وكانت ولادتي هدية عظيمة لها من السماء، لم أكن لأولد على رأيها لولا إطعامها الخبز

للفقراء، والتكرم بكل ما يطلب منها كي تنجب ذكراً يرث اسم العائلة، ويحيي ذكرها لأجيال، وكانت على ثقة أن الله لا يمنح البخلاء الأبناء، لهذا منحت كل ما يقع بين يديها وآمنت أن تجارتها رابحة يوم أنجبتني وبعد كثير من صبر وعناء، هذا قولها أما أنا فما نفعتها في الحياة ولا استندت عليَّ في مرضها ولا في عجزها وما كنت لها إلا عبء يحتاجها في كل يوم، حتى يوم توقف قلبها عن الخفقان وحدها كانت تتقن مسح دموعي وتخفيف أوجاع قلبي المريض.

وأنجبت بعدي لكيلا أبقى وحيداً لكنها أنجبت فتاة! وكان أبي من أسرة ميسورة الحال لم تعرف الفقر يوماً وكان أجدادي يكتنزون جرار الليرات العثمانية الذهبية والجميع يعلم كيف استبدلها الأغبياء بالعملة الورقية ونقل الذهب إلى فرنسا بالأطنان وكان لأبي أخان عمي مصطفى يكبره ويفتعل معنا المشاكل أكثر من إسرائيل وعمي عاصي مسالم يحب الناس ويعطيهم حتى دمائه.

يعري أولاده كي يرضى عنه عمي مصطفى كالعرب تماماً أولادهم جياع ونفطهم المتدفق في مولات أمريكا وأوروبا يحاك لنا فيه الشباك كي نبقى عالقين لا نتحرك إلا

لينقلوننا إلى ما يشاؤون من تحنيط، أو تحويلنا إلى شواء، ليتبلونا مع النفط... مخزية أوضاعنا، تصطك أسناننا من البرد والجوع، ونحن أبناء خير وعز وننام على بحار النفط والسيلكون والذهب المخزن ليوم العوز...

عمي مصطفى لم ينجب إلا الصبيان أنجب أربعة منهم. وكان يفخر بذلك ويسرق مصنع أبي بحجة أن أمي لن تنجبهم قبل قدومي وبعده بحجة أن الوحيد لا يؤتمن على خلية نحل... وهكذا عشنا معه في صراع لا تحله مصالحات ولا مؤتمرات وعمي عاصي يفعل له ما يريد، وكاجتماعات جنيف ومدريد لم تقدم إلا تضييع الوقت والمال أما عمي عاصي رغم استسلامه فقد كان أبي الثاني وكان يهتم بي كثيراً. عشنا في بيته أكثر مما عشنا في بيتنا فقد تزوجت أختي لميس ابنه البكر غانم في عرس مازالت المدينة تجعل منه حدثاً تاريخياً فيقولون حرب لبنان بدأت يوم عرس غانم ولميس، ونجح ابن نجاح البكلوريا بعد العرس بسنة، وفاطمة ولدت محمد يوم العرس أخذوها من العرس إلى المشفى، ويا حرام بعد العرس بجمعة واحدة ذّهب سعد في مهمة عسكرية إلى الحسكة وما عرف عنه بعدها شيء...

أما أختي رغد فقد كانت لوحة فائقة الجمال تتنقل بين الناس، وزاد في جمالها دراستها لطب الأطفال، لكنها كمعظم الجميلات تقع فريسة حب تدفع ثمنه عمراً بأكمله وقد أجبرتني و قهرتني وتسببت في ضعفي يوم تزوجت أيضاً من ابن عمي حسن الأخ الأصغر لغانم، وأسسنا معهم أسرة واحدة رغم مأساتي معهم، إلى أن جاءت الحرب الأخيرة وقلبت حياتنا رأساً على عقب فاشتعلت وأشعلت معها كل شيء

كنا بداية نتربع على هضبة متفردين كنسر في عش كبير لأسرة كبيرة في بلدة محاذية لمدينة طرطوس... كان للعائلة منشأة لصنع زيت الزيتون، طمع عمي مصطفى وأجبر أبي وعمي عاصي على بيعه أو تنازله عن حصته مقابل موسم عاميين لم يحدثني أبي عن أنه رفض وأن عمي أجبره بوسائله العدائية، حيث أغلق المنشأة لثلاثة أعوام متتالية كدنا فيها نتسول وأخبرتني أمي بتفاصيل تشبه تسلل المسلحين واحتلال بلدة بموافقة أهلها بشكلٍ مخزيٍ، وباعتبار بلدتنا محاذية للمدينة فقد استطاع ذكاء أبي أن يؤسس لبداية قوية من جديد بوكالة لاستيراد القطع التبديلية لعدة شركات مع عمي عاصي بمبلغ حصلاه

وآخر من عملهما في تجارة قطع بسيطة لمعاصر الزيتون اشتهرا بأنهما وكيلين لها ولكن جشع عمي مصطفى أخذ هذا الامتياز أيضاً، مؤلم وخطير أن يكون العدو ينام معك في نفس السرير، ومجبر أن تعتاد على تحمل العداء لضعفك أمام قوته...

أسسا بعدها مصنع حلويات بكافة الأصناف والخبز بأنواعه والكعك وكما تعرفون الناس تستغنى عن كل شيء إلا الطعام واللباس وإذا كانوا مثلي والنساء أيضاً لا يستغنى عنهن. وذاع صيت المعمل بجودته ونظافته... وطيبة أبي وعمي وكرمهما جعل التجار يتهافتون بطلب منتجاتنا من كل المحافظات وما زالوا فقد تزايدت أعداد العمال وكانت أجورهم من أعلى الأجور في المحافظة لهذا كان العمال يعملون بجد كيلا نستغني عنهم وانتشار البطالة جعل كثر ينتظرون الفرصة لوظيفة عندنا لم يكن أبي يريد من أولاده شيئاً سوى الدراسة والتحصيل العلمي أختي لميس زوجة غانم كبيرتنا كانت جميلة والجميع كان يقول أنني أشبهها وأننا أجمل من ولدته طرطوس كلها ودائماً نشكر الله على نعمه الكثيرة ومنها امتناني بالنور والطاقة الإيجابية التي تصدر مني ومحبة

الناس التي رافقتني رغم انزياحي قليلاً عن الطريق الذي رسم لأمثالي، وصور أختي كانت صالحة كأغلفة لمجلات الجمال دون أية إضافة أو تجميل...، تحاكي عمتنا النخلة بالطول، وتجبر من يقابلها الانحناء للمسة التقدير التي تفرضها نظراتها المتزنة، بيضاء كالحليب بشعرٍ أسود كليل كانون في وطن لا كهرباء فيه ولا شموع... عيونها ملونة كعيون أمي وكبيرة مسحوبة تكاد تجرحك يعتل النسيم حين يلثم خدها ويخجل من تلك النظرة الخاصة بها... وكاللوحات كان جسدها ينتصب أمام طلابها بصوتٍ رخيم يجعلهم كالأموات صامتين... فقد تفوقت ودرست علوم اللغة العربية... وأختي ريم تكبرني بعام ولا تقل في الجمال عن لميس إلا أنها بلون حنطي... كبرت بسرعة أيضاً، وكان وجهها ولباسها الأنيق ومهنتها التي اختارتها لتسريع التخلص من الدراسة، جواز سفر إلى قلوب خيرة شباب المدينة، اختارت العمل باكراً فقد دخلت مدرسة التمريض في سنٍ مبكرة بعد الشهادة الإعدادية وما تزال أيضاً ممرضة في مشفى خاص بعد أن استقالت من عملها في المشفى الحكومي... أختي رغد تحدثت عنها وسوف تقتحم ذاكرتي وقلمي دون إذن

ستكون دائماً محور انشغالي، لم أوافق يوم على علاقة حب ربطتها بحسن الأخ الأصغر لغانم ابن عمي عاصي ولم تكن فقط جميلة فقد كان الجمال يختبئ حين تمر وجاذبيتها للنفوس كمغناطيس في كومة دبابيس وجميع محاولاتي لم تغير رأيها بحسن وتزوجته برضى الجميع إلا أنا كانت قصيرة اللسان والجسد جداً إلا أنها حكاية وقصة بالنشاط والحيوية والذكاء تفوقت ودرست الطب واختصت طبيبة أطفال ولكنها لم تنجبهم ولا أظنها... فقد ولدت مع الحركة التصحيحية في العام سبعين من القرن الماضي، وكان منهاجها الدراسي جديداً بالنسبة لمناهجنا أنا وريم وليس واختفت من منهاجها قصائدنا التي كنا نرددها واختفى بعدها الكثير مما تعلمنا

ريم الممرضة دلوعة أمي وبهجة البيت كالتوأم مع رغد تزوجت مهندساً يعمل في منشأة صناعية قريبة من المشفى الحكومي والذي انتقلت إليه بعد زواجهما في ضواحي دمشق ورغم أنه من أسرة غنية جداً ووضعها المادي جيد لم تتخلَ عن عملها ولم يجبرها على ذلك رغم تلميحه برغبته عدة مرات، ولم تنجب له سوى ولدين وكانت تلح عليها رغد لتنجب المزيد مرددة أنا أتبناهم...

كنا نحزن على رغد لأننا لم نكن قد عرفنا قيمة الفقد الحقيقية فكان أكبر هم لنا هو عدم إنجابها وبعدها خسارتها لمن تجمعت نجوم ونسور على كتفيه ولم يترك سوى ذكره العطر.

كانت ريم ترد والله وحدك يا رغد مرتاحة من الخوف على الأولاد مرتاحة من السهر لمرضهم من تدريسهم من كل الهم الذي يرافقهم حتى يكبروا، لا أجد عربي يحب نفسه لنعش من أجل ذواتنا، ماذا سيفعل الولد في النهاية سيتركنا، وكانت وجهة نظرها تستوقفني وتبرر لي عندما أنشغلُ بعلاقة عابرة أو قبلة صادقة لفتاة قابلتها مصادفة في مصعد أو حديقة عامة واستدرجتها حيناً بعينيّ وحيناً بمهنتي وعلى الأغلب بوظيفة في شركتي.

كان ابن ريم سامر جميلاً جداً وذكياً كالحاسب. أما أدهم فقد كان بليداً وصامتاً، وقد استطاعت أن تصنع منه رجلاً، ثقوا أن النساء المحبات لبيوتهن يصنعن المعجزات، وبعضهن للأسف يهدمن جدرانه من الداخل وينهار برعدة طيش على من فيه... احذروا يا رجال من كيد النساء فكلام الله لا نقاش في دقته.

استهواني التاريخ فعلاً فدرسته عن شغف ورغبة رغم أنني تفوقت في علوم الرياضيات... بعد الحرب اللبنانية بعام أو عامين كنت مدرساً أقف أمام الطلاب في أكبر تجمع مدارس في مدينتي... مهنة التدريس حقاً شيقة ومتعبة وتصنع من المدرس شخصية قيادية مهما كان ضعيفاً وخجولاً قبلها. المهم أن يثق بمقدراته.

كان لدرسي الأول ذكرى مضحكة حيث وثقت بحفظي ودخلت عابساً لأخفي توتري وبدأت بدون مقدمات: تقع سوريتنا الحبيبة الحالية الجمهورية العربية السورية على الجناح الغربي للهلال الخصيب في موقع هام بين الشرق والغرب وبهذا فإن أرض سورية الحالية قد شهدت بعضاً من أقدم وأهم الحضارات على وجه المعمورة كما دلت على ذلك الاكتشافات الأثرية الهائلة التي يعود بعضها إلى ما يزيد عن ثمانية آلاف عام قبل الميلاد. لا تكاد تخلو منطقة من مناطق سورية من المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات زمنية مختلفة والتي يزيد عددها على ٤٥٠٠ موقع أثري هام. هنا كانت بداية الاستيطان البشري وتخطيط أولى المدن واكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات ومعرفة وتطور الأبجدية هنا اكتشف المنجل الأول والمحراث

الأول هنا قامت المدن الأولى في التاريخ مثل المملكة الأثرية إيبلا في شمال سورية هنا بنت امبراطورية امتدت من البحر الأحمر جنوباً حتى تركيا شمالاً وحتى الفرات شرقاً استمرت مئة عام من ٢٥٠٠ق.م إلى ٢٤٠٠ قبل الميلاد. خلال الألفية الثالثة والثانية قبل الميلاد قامت في سوريا حضارات كثيرة: الكنعانيون الفينيقيون الآراميون.

فقد حكم الكنعانيون معظم المناطق السورية أما الفينيقيين فقد استوطنوا على امتداد الساحل السوري مؤسسين امبراطورية بحرية في منطقة غرب سوريا أما ممالك الآراميون فقد امتدت في معظم أنحاء البلاد السورية...

أستاذ أستاذ أستاااذ: -بصوتٍ ظننته جاء لجماله من السماء

قالت: أستاذ لا يمكن أن تقرأ لنا التاريخ في حصة واحدة وتعالت ضحكات في الصف أربكتني فخرجت دون أن أتلفظ بعد ذلك بكلمة.

في غرفة المدرسين استقبلني ابن عمي سالم وقد سبقني بسنوات إلى مهنة التدريس وكان يعطي تربية دينية ويكتب التقارير المزورة التي تخفي من يقف في طريقه

وراء الشمس ولطالما ارتعبت أمي وبعدها زوجتي من خلافي الدائم معه.

قلت في نفسي وقد ظهر ارتباكي: من أولها هذا الوجه الأسود في طريقي صعب أن يمضي هذا اليوم على خير علماً أنه بارك لي وقال للمدير واليوم ابن عمي يحل محلي إذا كنت غائباً فهو كأخي الصغير... فار الدم إلى وجهي وقلت بصوتٍ قوي كأنني أقاتل عدواً بعيداً: لا أتقن إلا عملي ولا يمكن أن أكون مكانك في أي مجال وفي نفسي قلت لا بد أن المدير قال لنفسه واحد منكم يكفي كنت سأصرخ في وجهه أكره هذه القرابة وتأففت من قدري الذي جمعني مع هذا المخلوق. ومؤكد صعب أن تمضي عمرك بالقرب من الشر حقيقة رافقتني ووعيتها دون أن أستفيد من هذه المعرفة.

عدت باكراً فقد نسيت الحصة الأخيرة بل تناسيتها

عدت إلى حضن أمي كطفل صغير ودون أن تنتبه تخلصت من دموعي بشالها الطويل قالت: والله يا بني لا شيء يسعدني إلا أن أحمل أولادك نعم أمي تعرفين قصتي...

معظم أصدقائي زاروني اليوم ليطمئنوا عليّ... وبقي غانم برفقتي إلى ساعات الصبح الأولى قلت له مازحاً: اليوم أختي لن تفتح لك الباب.

لكنه ضحك وقال: النساء يتغيرن بعد الإنجاب وأختك ما عادت تلك القطة التي تلاحق غانم في كل مكان بعد أن أنجبنا الصبيين والبنت صاروا شغلها وجل اهتمامها ينصب عليهم وهم كما تعلم صاروا بفضلها زينة الحي في التربية والاجتهاد والمظهر...

تجسس سالم علينا في إحدى المرات وسمعنا نتحدث عن الفساد، وحمل ما سمع إلى أبي وأثقل عليه بالتحذير واستغل ما سمع كسكين ذبحنا بها مرات... لا أعرف تحديداً ماذا يعمل غير التدريس لكنه كان مهماً في الدولة وله كلمة في كل مفاصلها، يفك كما تقول أمي المحكوم بالإعدام وكذلك يضع البريء في حبل المشنقة.

قال لي مرة وكنت صغيراً: وكأنّني متهم وهو الوحيد الذي يستطيع تبرئتي ((انظر يا جابر أنت وحيد ولساتك ما فقست من البيضة لا تورط حالك مع صهرك الغبي... حزب غير حزبي لن يدخل المدينة على جثتي ولا تجبرني

أن أمنعك بوسائلي مع الغرباء وأقله أمنعك من صحبة رفاقنا كيلا تفسد أخلاقهم)).

- لم أعِ كلمةً مما قال لكنني صرخت به: لا علاقة لك بي ولن يخيفني كذبك على الناس.

- بهدوءٍ وقرفٍ قال لي: ستخاف يا جابر صدقني

-لا تحب أنت البلد أكثر مني ولا تبيعني وطنية.

- سوف تندم ثق أنني سأجعلك تندم لأنك خلقت، وستكره يا جابر أمك لأنها أنجبتك.

كان من عادتي أن أجمع أبناء الحي ممن يصغرونني وأعلمهم فروضهم المدرسية، لم يكن أحد أبداً يذهب إلى معاهد أو مدارس خاصة. كما اليوم المدارس الحكومية مجرد زرائب للطلاب، لتشجيع المدارس الخاصة ودعم رؤوس أموال أصحابها...

عندما كنت في التحضير للثانوية العامة كان يحاضر سالم أيضاً بي وكنت أصم أذني ولم أنبت بحرف لأن أمي ستقف معه ضدي بالتأكيد وسأتسبب للعائلة بمشكلة

****

(٣)

أحببت ومنذ الطفولة ابنة عمي عاصي الوحيدة وكانت أمها خالة سالم التي أجبر عمي مصطفى عمي عاصي الزواج بها بعد طلاقها لمرتين ولتبقى قريبة من أختها أم سالم ولهذا كان انتماؤها لبيت أختها وصهرها أكثر من زوجها وأولادها، وكانت تخاف من عمي مصطفى أكثر من السرطان، وتحسب حسابه وتشعر تجاهه بالامتنان فقد عاشت أم غانم سعيدة جداً وكما تشاء، ومرتاحة في كل تفصيل من حياتها مع عمي عاصي.

كنا قد تعاهدنا أنا ووردة على الزواج، وكنت أكتب لها الشعر وأعمل لها ضفيرتها أمام الجميع فشعرها الأشقر الطويل كان بين أصابعي سلاسلاً من الذهب ويصير أشعة شمس أصعد بفكري متسلقاً عليه لأقطف لكلينا النجوم وكان الجميع يعرف بتلك العلاقة حتى أبي قال لعمي عندما ينهي جامعته سنزوجهما ما رأيك أن نعلن الخطوبة؟

وافق عمي بفرحٍ وكانت سعادتها لا توصف عندما أخبرتها.

ولكن عمي عاصي عاد بعد مدة: قائلاً: البنت وأمها غير موافقتين على الخطبة حتى تنهي دراستها، وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع ورفض حتى أن يشرب فنجان القهوة الذي أحضرته أمي قائلاً: لا نستحق قهوتكم. لا تزعلوا مني ولكنه قال قبل أن يغادر: غانم ولميس لا علاقة لهما بما تؤول إليه علاقة جابر ووردة أرجوكم. أمي الوحيدة التي فهمت ما يقول

بعد أن غادر قالت لي: أنت رجل والرجال لا تلهيهم فتاة عن متابعة الحياة تحت كل حجر تجد ألف بنت تنتظر نظرة من عينيك... لم أفهم وقتها أن أمي تقرأ ما لا يقال.

كان سالم قد غزا رأس خالته وأقنعها بزواجه من وردة فقد قال أمام أختي لميس: وردة لن تكون سعيدة إلا معي وأنا أحبها من يوم ولدت وكنت أنتظر اليوم الذي تكبر فيه لأطلبها وأنت يا خالتي لن توافقي على طيش المراهقة وما قصة جابر هل سيتزوج وهو في حضن أمه. ما كان لخالته أن ترفض فأنا ما زلتُ فعلاً مع أهلي ولم أدخل الجامعة قبل عام وسالم يتسلى بذهابه إلى المدرسة وله أسبابه التي ما عرفتها في يوم! ما كان محتاجاً لأجر الحصص الدراسية! بنى قصراً وعنده ما لا يحصى من الموارد

شقق للبيع، سيارات أجرة، باصات تنقل الركاب إلى المحافظات...

عندما رأيت دموع أمي علمت أنني فقدت حبيبتي قلت مازحاً: ما عاش من يبكي أم جابر دعي وردة تقرر أمي... ووافقت وردة على زواجها من صاحب القوة والسلطة والعمر ولم نكن أوائل ضحاياه على كل حال ولا آخرها...

يوم عرسهما وجهوا لنا الدعوات واحداً وواحدة كان يريد أن يرى قهرنا والدها عمي عاصي ضمني وقال: والله ما طلع بيدي أن أمنع هذا الزواج...

وكان العرس في فندق مشهور وكبير وكانت المعازيم من أصحاب الشركات والمدراء بنجوم ونسور وبطون!

لم أذهب رغم مخاوف أمي من بقائي وحيداً يقتله الظلم والفقد وبقيت مغلقاً عليّ باب غرفتي لأيام.

قرأت كل ما كتبته لها من شعر ولو طبع احتاج مجلدات وكتبت بعد العرس هذا المقطع النثري الذي احتفظت به إلى اليوم.

"خانتني وردة بمحرابك أنت كفرت بالنساء سكنت الليل كرهت البقاء ما عاد عشقك مختلط بالدماء، ما عادت الجنة بين يديك ما عدت لي ما بقي في الزمان وردة

كنت عطري وخانني العطر على كل حال عاهدتك مراراً أنني لن أخون لكنك بعتني وما ينقصني المال ما كنت يوماً لي إلا بلسماً لماذا اليوم أشعلتني كبركان؟" وأقرأ على الورقة كلمات محت أحرفها الدموع كيف لقلب عاشق أن يعيش وعمره ضائع رمته الحبيبة في الجحيم أعوذ بك من الشيطان الرجيم بل أعوذ لك ممن اخترت شيطاناً سيصلبك ويقطعك قبل أن تموتي بحسرتي ولو بعد حين.

ونمت ليالي لا أعرف الليل من النهار وطيفها واقف بين جدران غرفتي التي بكت على وضمتني بحنان إلى أن أشرقت الشمس يوماً عليّ وخرجت إلى الدنيا من جديد...

جاء غانم مراتٍ وطرق الباب الذي بقي موصداً في وجهه حتى حين، بل كان موصداً في وجه الجميع حتى أمي وهذا اليوم أصر غانم: بحنان واستعطاف قال: لا أظنك نائماً جئت لأدعوك لعيد ميلاد أختك لميس ألا تتذكر كم تهتم هي بالجميع دعنا نهديها الفرح ثق ليس من عدل على هذه الأرض.

قلت باكياً: لا الفقراء لا تحدث معهم هذه الخيانات لو كان سالم فقيراً معدماً لما غرس الوجع في قلبي لكن على الجبال يخف الأكسجين وعند الأغنياء يخف العدل.

- بحزنٍ وخيبةٍ قال غانم: أليست وردة أختي والله هي الخاسرة ولم تستمع لنصائحي ولكن ثق ستندم حين لا ينفعها ندم.

ردي كان خلاصة لهذا الموضوع: عندما يتحول العشق إلى قوة يفعل المستحيل، وإن طعننا ينزف القلب كل دمائه

أنا لا أخجل منك نعم أبكي عدم تصديقي لما انتهت إليه أولى علاقاتي وحبي الوحيد...

****

(٤)

ذهبت إلى الجامعة بقلبٍ مكسورٍ ورغبةٍ ملحةٍ بالنجاح لم أكن كمعظم الطلبة مضطراً للسكن الجامعي فقد أمن لي أبي شقة، تعود لأحد الموظفين في الشركة الأردنية السورية في ضواحي العاصمة دمشق وكنت مرفها في عيشتي وفقط لعامين بقيت وحيداً إلى أن أتت أختي رغد وتناوبت بين السكن معي وفي المدينة الجامعية كانت تقول لي:

- دروس العملي تتأخر ولا يمكنني الوصول ولا أريدك أن تنتظرني كل يوم بسيارتك...

-وعدتك أمي بسيارة بعد التخرج لكنك رفضتها وقلتي لن أخذ عمل من تركوا المدرسة أريد سائق...

كانت رغد تتردد مرتين أو ثلاث في الأسبوع إليّ وكنت أسعد بوجودها جداً ولكنني معتاد على الحفظ بأن أقرأ بصوتٍ عالٍ وكانت رغد تجلس وتنصت لمحاضراتي.

قائلة: والله يا أخي التاريخ أجمل من الطب أرجوك أعد عليّ الممالك السورية، أو لنتفق كلما حضرت إليك تطلعني

على مرحلة من مراحل نشأة هذا البلد العظيم اتفقنا أخي لنبدأ

- ضحكت بصوتٍ مرتفعٍ قائلاً: تريدين أن ترسبي بسببي أو تعلميني بدورك الطب

-لا أخي حقاً أستمتع بدروسك، أراجع محاضرة عن اليهود واليهودية كان السابقون يهتمون بمعرفة العدو لكننا نختلف عنهم وليس بيننا وبينهم سوى عقد من الزمن تغيرت المدارك بل تغير كل شيء صارت القيم في الدرك، ولا يخفى على أحد التطور السريع لكثير من أشياء

- أخي: أحببت أن أعرف سبباً جعل اليهود يموتون بالمجان كما يحدث معنا اليوم هو تاريخ يعيد نفسه ووسائله بضحايا هم دائماً الأضعف اسمعي حدث مهم ومثير:

تصوري ماذا فعل التزمت الديني اليهودي يوماً: فقد اندلع التمرد اليهودي فقط بسبب قيام بعض اليونانيين بتقديم أضاحي من الطيور أمام كنيس يهودي ولأن الدولة الرومانية لم تقم بأية ردة فعل، مما أدى إلى سلسلة من الأحداث وردود الفعل قادت في النهاية إلى أعمال عنف ضد المواطنين الروم في المملكة الرومانية، وممتلكاتهم

وضد المتعاونين معهم من اليهود مما اضطر الملك اليهودي الموالي للروم إلى الخروج من مملكته.

-الله كم ممتع تسلسل الأحداث وممكن فيه كذب لكن كذب القوي مقنع.

- والله ظننتك تتجولين في بساتين أحلامك أختي، تلاقي الخير.

- فكرت بما سمعت التاريخ يكتبه القوي والقوي يقنع الضعيف بوسائله.

- فعلا التاريخ الذي نقرأ لا بد كتبه اليهود أو رجال الدين، بلا شك كل شيء لصالحهم. حتى شروق الشمس تشرق فقط لتجديد أحلامهم.

- دائماً يخطر في ذهني المعبد الذي نشأت فيه مريم عليها السلام المعبد هو الهيكل على كل حال يؤديان إلى طاحون اليهود وضحكنا بسخرية أو حزن؟ وفيه يؤدي اليهود شعائرهم الدينية وصلاتهم.

- لماذا نحب أن نقرأ تفاصيل عنهم ولا يشغلنا تاريخنا

-لا ليس صحيحاً قلة من يقرأ عنهم مع أنه من الضروري لحروبنا معرفة أعدائنا أعرف عدوك لتواجهه لا يمكن أن تواجهي خصمك دون معرفة لو كنت أعرف

سالماً ما تركت له كل شيء ليتدخل فيه وعندما عرفته كان اللي ضرب ضرب واللي هرب.

- اعملي قهوة من فضلك سأبحث عن مقالة طبعتها عن استبدال الهيكل بالمعبد... نعم وجدتها، هل نتابع أم ستنامين؟

-لا لا ما أطال النوم عمراً وما قصر في الأعمار السهر أخي لقد طار النوم من عيوني ما رأيك أن تقرئي بنفسك ؟؟

-لا لا أريد أن أفهم.

طيب سأختصر:

يعود تاريخ المعابد إلى فترة تحرير بابل من شقاوة اليهود درسنا عنه في مدارسنا العظيم نبوخذ نصر ألا تتذكري؟

ويبدو أن اليهود هناك كانوا يجتمعون للصلاة في أماكن خُصِّصوها لذلك الغرض. وقد بدأت تظهر إشارات المعابد اليهودية في الكتابات الدينية اليهودية بعد ذلك التاريخ. ومع هَدْم الهيكل، أصبح المعبد المركز القومي والاجتماعي لليهود والجماعات اليهودية المنتشرة في العالم، والمكان الذي يتدراسون فيه تزييفهم الديني. ولذا فإن انتهاء اليهودية في بابل والعبادة القربانية المرتبطة بالهيكل لم يتسبب في انتهاء اليهودية ككل وليته فعل، وخصوصاً أن

الفريستين كانوا قد توصلوا إلى صياغة لليهودية تستند بزعمهم إلى التوراة، وتجعل المعبد اليهودي وليس الهيكل مركزها

حاول المعبد أن يكون صدى للهيكل. ومعظم المعابد اليهودية في الوقت الحاضر بُنيت متجهة للقدس بقصد فرض الاحتلال. ويوجد حوض في الخارج يستطيع المصلون غسل أيديهم فيه قبل الصلاة وشكل المعبد في الغالب مستطيل. وتوجد في مقدمة المعبد فجوة تغطيها ستارة أصبحت دولاباً ثابتاً هي تابوت لفائف الشريعة الذي تُحفَظ فيه وهي أكثر الأشياء قداسة في المعبد وتقابل ما أطلقوا عليه قدس الأقداس في الهيكل. وعادةً ما تُزّين المعابد في العصر الحديث بنجمة داود ولوحي العهد وهذا التزيين سياسي أيضاً. وقد كان قارئ التوراة يقف في مكان أكثر انخفاضاً نسبياً من أرض المعبد. وفي الوقت الحاضر انعكس الوضع فصار القارئ يجلس على منصة عالية نسبياً تُسمّى الميمار وتقام في المعبد الصلوات اليومية فبإمكان أي شخص من الناحية النظرية أن يؤم المصلين. غير أنه من المعتاد أن يؤم المصلين اليهود أفراد تلقوا دراسة خاصة للقيام بهذه الوظيفة. وتُقرَأ التوراة المزورة في

المعبد كل يوم سبت وفي يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع

-على كل حال: أختي راجعي محاضرات الطب وأنا سأجهز لك ما تشتهين، أعرفك لا تحبين الطعام الجاهز وأخبري أمك قولي أخي يدللني...

وفي المطبخ بدأت أدندن بصوتي: وروى النعم عن ماء السما... كيف يروي مالك عن أنس فكساء الحسن ثوباً معدما....

يزدهي منه بأبهى ملبس في ليالي كتمت سر الهوى... بالدجى لولا شموس الغرر مال نجم الكأس فيها وهوى... مستقيم السير سعد الأثر وطر ما فيه من عيب سوى... أنه مر كلمح البصر وقالت رغد مندهشة: من أجمل ما سمعت!!

- قلت ضاحكاً: هي لخليل حاوي أو ابن الخطيب لا أتذكر

- بصوتٍ حزينٍ سألتني: أما محيت الماضي أخي...

- نعم محاني معه أختي... لا عليك أظنك تدرسين في الجامعة أكثر وأنا ألهيك تارة بالتاريخ وتارة بالغناء

- هل هذا طرد

- لا وحياتك أشعر معك بالأنس كل زملائي يعرفون أنك معي فلا يأتي إلا القلة وأنت تعرفين... محاضراتي سهلة.
ماذا عنك أختي أخبريني أما زال موضوع حسن يشغلك
لا تظني أن ارتباطك به يزعجني لأنه ابن عمي بالعكس لا أحب أن يصاب عمي وأبي بالقهر أكثر، ولكن حقاً لا أراه مناسباً لك فقد اختار الكلية الحربية ليصبح ضابطاً بمشورة صهره سالم وهذا الولاء لسالم وحده يجعلني لا أرى فيه الزوج المثالي لك وأمامك مستقبل طويل.
- تريد أن تقول وتتزوجين من طبيب... منطقك أحياناً يشبه منطق سالم أخي لن أتراجع وقد اتفقت مع أبي فور تخرجه أي العام القادم سوف نتزوج ونسكن هنا بالقرب منك اشترى له عمي بيت وأنهي وأنا معه جامعتي واختصاصي ولست مضطرة كغيري حتى عمر الثلاثين لأتزوج
-ولماذا تمتلكون بيت في غير محافظتك.
قلت لك أفكارك متعفنة... وهربت لكنها غيرت الموضوع وقالت:
- سمعت اليوم في الأخبار سقوط شهداء في لبنان

طبعاً سيسقط شهداء فلم يتوقف غبار الحرب اللبنانية منذ الاستقلال كأننا شعوب تنمو جذورها من الدماء الطاهرة التي تتغلغل في تربتها فتجعلها خصبة، تنبتت عليها الأرواح.

عندما أسترجع التاريخ أشعر أن حقد الغرب على اليهود هو سبب حياة الحروب التي نعيشها وعاشها كل من ولد من أب وأم عربي ويهودي... وليس العرب وحدهم من يعاني الظلم كذلك اليهودي المسيج بالأسلاك والحروب التي تصنع له منذ بدأ التاريخ.

كلامي هذا لن يعجب أحد، ولكن كتب التاريخ واضحة كالشمس ما أسميه تحرير وفتح يسميه صاحب الأرض غزو وما أطلق عليه احتلال يسمونه تحضر وانفتاح... التسميات لا تغير من الحقائق.

-أخي الله يحفظك لا داعي لمرض القلب اسمع دون تفكير أو تحليل...

-أختي الحروب تسري في الدم اليهودي ليس من خيار لهم كالجوع والعطش كالعشق

كما قلت منذ قليل بدأ اليهود حياتهم بالحرب واستمروا منذ تحركهم الأول يوم نجحوا يا رغد بمباغتة الروم

والانتشار بسرعة واتبع الروم سياسة الأرض المحروقة وقتل من الطرفين ما لا يحصى من الرجال وكان الامبراطور الروماني يدعى هادريانوس مصر على إبادتهم وليته فعل، لن تغير الأماني من الواقع

في زيارة ثانية ألحت عليّ أن أتابع معها دروس التاريخ قالت أرجوك اقرأ شيئاً عن سورية.

-أرجوك يا جابر

قلت: لو كان لي أخ يريحني فقط منك لكان مكسب وما تنفعك دروس التاريخ؟

-الظاهر أنني أحب معرفة الماضي كي أتقن علاج أوجاع الحاضر لا يمكن أن تعالج مريضاً عن جهل تام.

- تفضلي مع الشاي بالجوز سأحاضر بك: خلال العصر الروماني كانت عاصمة سورية "أنطاكيا" والتي كانت وما تزال هدية ثمينة لتركيا من فرنسا وخونة من سورية كان يقدر عدد سكانها بخمسمئة ألف نسمة وكانت "أنتيوخ" أو "أنطاكيا" اليوم أكثر المدن اكتظاظاً ومركز الإمبراطورية الرومانية.

لا بد أخذتم في المرحلة الإعدادية عن بيزنطة أيضاً؟

هو العصر الذي تميز بانتقال القوة من الامبراطورية الرومانية إلى القسم الشرقي من القسطنطينية وذلك بعد سقوط العاصمة الغربية للإمبراطورية الرومانية في أيدي البرابرة وهنا نستطيع أن نميز التاريخ الجديد للروم في الشرق والذي تميز باعتناق الروم للديانة المسيحية ولقد استمر العصر البيزنطي في سورية من عهد الامبراطور قسطنطين الكبير أي من القرن الرابع الميلادي وحتى الفتح الإسلامي لسورية في عهد الامبراطور هرقل في عام ٦٣٦ ميلادية.

- بتأثر وإعجاب شديدين قالت: نعم أخي في المرة الماضية طلبت منك أن تحدثني عن التاريخ لكنني أريد أن تحدثني عن العصر الحديث عن سورية قبل السبعين وبعده أريد أن أعرف أكثر.

- سوف تقدمين الامتحانات عني على هذه الحال...

- سأترك دمشق الجميلة لأيام هل عندك مجال لنقضي عدة أيام مع أم جابر.

-هذه الفكرة جاهزة للتنفيذ مباشرة أنا جاهز.

انطلقنا ظهر اليوم التالي وتأخرنا في الوصول لأننا قضينا وقتاً في حمص عند أقاربنا الذين طردهم من البلدة طيش سالم قبل مواسم الهجرات الحالية بأكثر من ربع قرن
حيث وصل شره إلى زوجها وأوصله السجن لعام كامل، وحرمه من وظيفته كمدرس علوم معه في نفس المدرسة ولا أحد فهم تفاصيل ما جري بينهما...
كانت أمي وأبي وريم وحدهم في البيت وفرحتهم بوصولنا لا توصف وكمن عاد من حرب... كل أصدقاءنا يحضرون لأهلهم أطباق الحلوى المنتشرة على الطريق أما نحن فكنا نكتفي بشراء بعض الهدايا وأحياناً البيتزا والفطائر المالحة التي تحبها أمي وقبل أن تنتهي رغد من تقبيل يد أبي بدأت تخبره: أبي ابنك يتعلم أن اليهود مظلومين ولا أتذكر كل ما كان يحاول حفظه... ببقايا ماء من كأس كانت قد أسرعت إلى يدي من شدة العطش رشقتها بها وضحك الجميع بصوتٍ عالٍ... كانت آخر ضحكة من القلب على ما أظن
-مجرد فكرة يا ذكية أبي: لم تنتظر لأخبرها عن انهيار الدولة العثمانية وقيام مملكة سورية العربية.

ضحكنا جميعاً وفي الصباح زرت المعمل وتفقدت العمال الجدد، وقابلت عمي وسألته عن ابنه غيث الذي كان مريضاً جداً قبل سفرنا فسألني عمي عن الجامعة وقال بهدوئه المعتاد: أنت تضيع فيها وقتك فالعمل ينتظرنك ولم يكن اختياراً موفقاً بأن تتجه للتدريس. تركته ليقنع أبي بفشلي استأذنت من أبي وانصرفت.

قابلت غانم أيضاً وسألته عن أختي ودراسة الأولاد وقد اعتدنا أن يكون جل همنا تحصيلهم العلمي.

-أخبرني بحنق ثائرٍ، أن البلد يسوء يوماً بعد يوم ونحن نعيش من تعبنا ولكن الناس لا تجد لقمة عيش، البطالة الفساد المحسوبيات كل شيء لا ينذر بالخير...

- تفضل نحن مشتاقون لجلساتك وأختك في المدرسة ولن تتأخر مع الأولاد لماذا أنت هنا ألم تبدأ الجامعة... نعم ولكن محاضراتي قليلة ورغد كانت تشعر بالملل فجئنا لنقضي يوم أو يومين ونعود إلى دمشق حيث الفضاء والصبايا الجميلات وما حرمت منه يا صديقي الكبير.

-لا تعجبني هذه اللغة الجديدة، نحن ناس نخاف الله ابقَ كما عهدتك والأخلاق زوادة العمر.

- لم تضع مني أختك لولا أخلاقي، لا لا يا غانم لا يبقى على حاله إلا الميت والمجنون وأنا لدي عملي وتعرف أنني أقوم بالإشراف على توزيع منتجاتنا في ضواحي دمشق وأحضرت بعض الملاحظات وبعض العمل ينتظرني، لست المدلل كما يشاع لا أتدخل مع المحلات أنت تعرف فقد الثقة يعني خسائر علينا جميعاً.

قال غانم وعيونه في الأرض وأنا أعي تماماً لغة صمته وأترجمها بسرعة: ألم يخبروك أن عمي مصطفى في المشفى يمكنك الاطمئنان عليه...

- ظننته لا يمرض فقط يتسبب بنشر الأوبئة... بحزن شديد قال غانم: عمي مصاب بالسكري وقطعوا رجله... رغم الألم ضحكت وقلت: لم يستطع أخذ المعمل فتسرب السكر في دمه... أتذهب معي؟

قبل أن يجيب أردف: جابر يجب أن تعرف وردة أيضاً في المشفى نفسه لكنها في ساعاتها الأخيرة.

- بلا مبالاة قلت: نعم أخبرتني لميس أنها في حالة سيئة ولن أذهب ولست مشتاق لعمك على كل حال أظن الجنة والنار والحساب على الأرض.

-أخفتني عليك يا جابر الشراب، والنساء خارج نطاق الزواج يخربن الحياة.

-ضحكت قائلاً لكن اللذة تكمن في فوران البركان.

أنا في هذه الأيام أحب اليهودي، والنساء والدخان أكثر من عمك وعائلته.

صمت غانم كعادته؛ تركته في متجره وذهبت مشياً اشتريت شطرنج لسامي وأسامة ولعبة جميلة، وكبيرة لميرا...

وانتظرت على مقعد في الحديقة المجاورة لبيتهم أراقب المارة، ومعظمهم تعتريه الهموم... عادت لميس برفقة طيورها الثلاث الجميلة بغبطةٍ وفرحٍ سألتني: عن سر هذه الزيارة المفاجئة.

- والله لا سر ولا شيء فقط رغد مشتاقة لرؤيتكم اتصلي بها...

أختي مدهشة في سرعة التحضير لأي شيء واتصلنا بريم أيضاً وتناولنا الغداء برفقة أعز الناس، ولم يستطع أحد اقناعي بزيارة عمي.

على الطريق أخبرتني رغد عن وردة وقالت:

لقد انتهت حياتها بسرعة فهي تلقت كل الجرعات الكيميائية ولم تتخلص من السرطان الذي انتشر في كل جسدها،

- لم أجد جواباً لكنني تمتمت من يراه ليوم يصاب بالمرض فكيف بها عاشت معه ثلاث سنوات في سرير واحد.

قلت: المحزن ولديها من سيربيهما كيف ستكون حياتهما بعيداً عن أمهما

- يقولون تغير أخي تغير بعد أن اتهموه بالسرقة ودفع كما سمعت ستين مليون لشخصٍ مهم ومع ذلك تخلى الأخير عنه مع أنهما شركاء في كل الصفقات... أخي لا عليك كن أنت بخير ولا تحزن هي باعتك في يوم...

- لم أفكر بها يوماً بعد زواجها ولكنني أحزن على عمي عاصي سيكون موتها عاصفة أرجو أن ينجو من إعصارها والولدين أيضاً وضعهما يحزن العدو والصديق

سالم يحتاج تربية من سيربيهما؟

مصطفى صبي وكما يقولون لا يخاف عليه أما الصغيرة ماذا عنها أختي؟

- سوف أذهب إلى المدينة الجامعية عندي دروس عملي ولن ترى وجهي قبل أسبوع.

(٥)

-إلى اللقاء، أتحتاجين لشيء؟
-ابتسمت وقالت: لا أم جابر لا تتركني محتاجة لشيء ثم عانقتني ودخلت الحرم الجامعي
- سأكون بخير ثقي بذلك وعندي ما يسليني في غيابك قلت محدثاً نفسي كعادتي. في شقتي في دمشق حدثت لي عدة قصص جعلتني أعاقب نفسي وأشعر أنني حقاً لا أؤتمن على خلية نحلٍ كما كان يقول سالم، بدأت هذه الحوادث بتلك الجارة التي كانت تتردد عليّ أولاً بحجة أنها اشتهت لي هذه الطبخة، ومرة أشفقت على وحدتي، ومرة ترد المعروف ببعض الحلوى والكعك الذي كنت أحضره... في بداية الأمر فعلاً كانت تجلس لساعة كاملة ولا أرى وجهها، لكن تطورت الأمور بيننا... مارست على عنقها أول اشتهاء، حيث المرة الأولى التي ألمس بها عنق فتاة كانت قد جرتني بهدوء إلى تقبيلها ولكنني نهضت مسرعاً وفتحت لها الباب وأنا أكاد أموت من الخجل والمشاعر المختلطة، وتذكرت وردة لسنوات نحب بعضنا بالكلام

والهدايا وألذ متعة كانت ملمس شعر وردة وعذوبة نظراتها وصوت ضحكتها، كانت متعتي في رؤية ابتسامتها. في ذلك اليوم وجدت بين يدي امرأة لم أكن أعرف أن في القبلة كل هذا التأثير واللذة وأطعم الغريب، وعاد شريط ذكرياتي وتوجعت بأفكاري: لا بد تركتني لأن سالم برع في الوصول إلى فمها قبلي... لابد سخِرا مني ومن عشقي الطفولي، سالم قطف شجرة حبي بعد أن نضجت، تركتها له ليتلذذ بها لابد كان لثغر وردة طعم ألذ من كل لذيذ

-في شقتي وفي يوم آخر وقد كنت مريضاً جداً وكانت الأمطار غزيرة لم تتمكن رغد من الحضور، دخلت جارتي الفاتنة من جديد ومعها الشوربة الساخنة وعطرها الذي جعلني أكثر سخونة... كانت أمسية جميلة من أجمل الأحاسيس عدت صغيراً بين يديها وكانت ليلتي ساخنة كحرارتي ولم تعد حياتي بعد ذلك اليوم هي ذاتها قبله... ظننته بداية أجمل أيام حياتي، أنا المدمن على صدر أمي فضمتني هذه الحسناء، بمجرد إغماضة عدت إلى مهدي وغفوت، فعلاً غفوت... سمعتها في اليوم التالي وتقصد أن أسمع تخبر صديقتها أنني لست رجلاً... ضحكت في سري وكان عندي صديق يكبرني أخبرته بما

حدث ولن يكون سهلاً على كل من مر من الشارع بمحاذاة شقتي أن ينسى قوة ضحكته وهو يردد لا أصدق: عمرك أربع وعشرون سنة وتنام بل تغفو دون أن تشعر بشيء وفي حضن فتاة تدللك؟!

هدأ قليلاً وسألني: هل هي بشعة؟

-لا أبداً تحت حجابها بياض الثلج، ناعمة وجميلة وأنيقة تشبه العارضات

- بعد عدة دروس في مدرسته تجرأت ودعوتها بنفسي وكان في نيتي أن أجرب وكانت تجربة ناجحة وتكررت بعدها مع كثيرات... صارت النساء اللواتي مررن في ذلك السرير بلا أسماء وصارت الأنثى من يومها تختصر عندي بليلة دافئة وعطر ونشوة، وفقدت الثقة بالنساء، وضيقت بعدها الخناق على أخواتي، وشغلت أختي لميس بابنتها ميرا، وبقيت إلى يوم زواجي لا أحترم نفسي ولا أصدق بوجود الإخلاص...

في وداع وردة الوداع الأخير شعرت كالشريرين بالفرح وكأنها عادت لي، وشغلتني فكرة أنني لو قضيت ليلة واحدة كاملة مع وردة وكان يمكنني ذلك لو فعلت لما ماتت اليوم، لما استطاعت تركي، لتشبثت بي كم كنت

غبياً وساذجاً ولكنني عدت وتذكرت الدروس المتكررة: الله يعاقب على ذلك ولا تجوز هذه الأمور قبل الزواج وهذا من المحرمات ولا بد من احترام العادات و كان ضميري يتوجع و ينام ساعات إضافية قبل كل لقاء وبعده و لكنني حقاً سعدت لذهاب وردة الجميلة إلى القبر وهروبها من وحشية سالم ورائحته النتنة.

بعد صيفين وخريف من وفاة وردة كنت وأمي نشرب الشاي بالجوز سألتني أمي:

ما رأيك أن نؤجل زواج رغد إلى حين تخرجها هو الآن بعيد أبعد ما عمر الله في درعا وليس كما توقعا، يكون في دمشق..

- أمي لقد ناقشتها مراراً بالموضوع وهي ككل العشاق عمياء لا تنظر أبعد من عيونه الجميلة وطوله... أمي ليتزوجا وتسكن في بيتها وعندما تتخرج تلحق به وتتعين في أقرب مشفى.

- بني واختصاصها، أتضيع كل تعبها وسهرها من أجل الزواج؟ عندما تنهي سنتها الأخيرة وتأخذ شهادة الطب تختص أمي. ادعي لنا أمي فقط دعاؤك يجعلنا سعداء.

لم يتمكن حسن من الحصول على عطلة في يوم تخرجي وأصرت أمي على الحفلة وسخر كثرٌ من حفلة تقام على شرف نيل جابر شهادة تاريخ؟

في بداية الاحتفال قلت لهم لن يكون في احتفاليتي هدايا منكم ولا رقص ولا غناء بل كل واحد من الحضور يحدثنا عن اختصاصه فالغناء والرقص لم يقدم لنا شيئاً عبر مئات السنين لنغير عاداتنا علّنا نتغير من الداخل...

لولا احترام الناس لأهلي وطاولات أمي العامرة وهدايانا التي اعتاد ضيوفنا على قبولها في كل مناسباتنا لكانوا قالوا في وجهي مجنون وغادروا لكنهم صبروا، وكان من عادة أمي في كل مناسبة ندعو فيها الأصدقاء أن تجهز هدايا بعدد الضيوف وكانت هدايا رمزية ومنها ما هو غالي الثمن وبعض الأحيان كانت تضع مبالغ مادية وهي من يوزع الهدايا أو كانت تكتب أسماء على كل هدية وبذلك لم تكن تتسبب للفقراء بالإحراج...

لم يستجب غانم لقراراتي وعزف لنا على العود أغانٍ جميلة رافقه أولاده أسامة وميرا بالغناء والرقص ثم طلبت من غيث ابن عمي عاصي الصغير وهو خريج هندسة كهربائية والآن في إجازة من خدمة العلم وهي تسمية لمن

ينضم إلى صفوف الجيش بموجب القانون وعلى كل شاب سوري أو من في حكمه من الفلسطينين أن يخدم لعامين ونصف في صفوف الجيش ولكن تعدل هذا القانون في بداية حكم الرئيس بشار الأسد لتصبح خدمة العلم عاماً ونصف فقط إلى أن جاءت الحرب وقضى الشباب الوطنين ما تبقى لهم من عمر في الجيش أو هربوا بشهاداتهم براً وبحراً وجواً لأولاد الأغنياء، أو حتى يتحول الشاب إلى شهيد حي ولكن يعفى من الخدمة الشاب الوحيد وكنت أتمتع بهذه النعمة والحمد لله...

قام غيث بشرح مفصل عن التيار الكهربائي وأنه من الخطأ تشغيل جميع الأجهزة في المنزل مع بعضها لأن ذلك يتسبب بأضرار بالشبكة الداخلية للمنزل واستجرار كبير من التيار وهو ثروة وطنية يجب المحافظة عليها، لا تنسوا وصيتي قد أذهب إلى حرب الكويت وربما أموت هناك أو أذهب مع جندية أميركية سمعت أن القواعد العسكرية الأمريكية تعتمد على البنات والكثير من عناصرها شقراوات لا يعارضن بعلاقات خارج الزواج والكثير من هذا واحمر خجلاً

قالت له لميس: أريدها زنجية كي أبقى الكنة الأجمل لعمي وتابعت مازحة وأعرف أن الزنجيات أكثر رومانسية وكذلك أكثر تعداداً هناك في الخليج ولا يقبلن بغير الزواج لنتجهز لعروسة سوداء فنحن ضد التمييز العنصري...

قالت أمي: غريب والله كيف للفتاة أن تعيش بعيداً عن أسرتها ربما ليرضوا قادة النفط الشرهين للنساء ويقال الملك أو الأمير لا يعرف بناته كلهن ولا زوجاته في بعض الحالات.

وسمعت حادثة غريبة أن الملك كان يتنزه في حديقة القصر والتقى بفتاة بارعة الجمال فقال أحضروها لي لأتزوجها، أخبروه أنها إحدى بناته، معقول لا يعرف بناته؟

ضحك الجميع وقال أحدهم الملك ملك نحنا بعرس أو في درس تاريخ؟

-ضحكت صديقة أختي فاديه وقالت:

لا يعرفون شيء أعجبتها فكرة السهرة وكانت على أبواب تخرجها من الهندسة المدنية اختصاص هندسة المدن

أردفت: الشوارع يجب أن تكون متوازية ومستقيمة... تقلل الحوادث وتقلل من استهلاك الوقود ضمن المدن ويوجد أساليب حديثة للتخلص من النفايات ففي إسرائيل يعاد تدوير٩٠ بالمائة من النفايات وطرق تدويرها بسيطة وجدوى اقتصاديتها عالية.

جاء دوري فقلت: سأحدثكم عن سورية قبل مولدي وكيف تجهز البلد لاستقبالي كلكم يعرف استقلال سوريا وما تبعه من خسارتنا للجولان ولكن قيام دولة الوحدة بين سورية ومصر كان له وقع ايجابي على الشعبين لكننا شعوب تتعب من الفرح وتخافه بعد انتصار الثورة السورية الكبرى وحصول الاستقلال المنقوص تنازلت الحكومة المؤقتة والفرنسيين للأتراك على ضم "لواء اسكندرون"، و إنطاكية إلى الأراضي التركية وشردوا العديد من سكانها إلا أن الاستقلال صار أمراً واقعاً تبعته الوحدة مع مصر حيث تحقق حلم جمال عبد الناصر بقيام الجمهورية العربية المتحدة بداية لتوحيد الدول العربية، لكن الأحلام غالباً لا تتحقق ولم تدم الوحدة لأكثر من عام كان الرقم ٣ خيراً ففي عام ١٩٦٣ قامت ثورة آذار وتشكل ما يسمى إلى اليوم الجمهورية العربية السورية في

هذا العام أنجبت أمي أختي لميس بعد انتظار استمر لسنوات وكانت أمي قد عانت ما عانت من كلام الناس والتهديدات بزواج أبي من أخرى علماً أنه أحبها كثيراً وتزوجها رغماً عن عمي مصطفى الذي كان يريده أن يتزوج من يختارها له وكانت أمي جميلة تميزها مسحة من الجاذبية والحزن في وجهها ترك كيمياء تجذب الصغير والكبير وهي الوحيدة لأسرة لم تنجب سواها ولم يقصر أبي في تدليلها... فقدت أهلها قبل زواجها مع عدد كبير من الأهالي في إحدى المعارك التي نشبت بين ثوار المنطقة الساحلية والجنود الفرنسيين الذين قدموا من دمشق بقوات إضافية لقمع ثورة الشيخ صالح العلي وفي حادثة سجلها أهالي القرى وعاشتها أمي بألم. وملخصها أن الثوار كمنوا لمجموعة من الجنود الفرنسيين في وادي العيون ويقال قتل منهم في هذا الكمين ٧٥ جندي وكان البقية على مشارف قرية جدي ومن خوفهم ورعبهم أطلقوا النار حتى على قطعان الماعز التي كانت منتشرة بين الأشجار وقتلوا عشرة أطفال وثمانية رجالٍ كانوا يقاومونهم بدون سلاح وخمس نساء ولحظها السيء أمي كان جدي وجدتي من بين الشهداء ولو لم تكن في بيت خالتها في القدموس

لماتت معهم، وشى أحد الخونة المنتسبين للجيش الفرنسي بوجود بيتٍ كبيرٍ منعزلٍ عن القرية ولا يسكنه إلا رجل وزوجته وابنتهما الوحيدة فلجأوا إليه وقتلوا جدي وجدتي وعملوا منه حصن قاوموا الثوار منه لشهر وأكثر لتوفر بئر ماء في البيت وطعام وفير اعتاد الفلاحون تخزين مؤنة الشتاء خوفاً من انقطاع الطرق بسبب الثلوج والبرد وقلة الموارد. وبقوا يقاومون الثوار انتهت ذخيرتهم والطعام.

ووقعوا في الأسر بعد انتصار الثورة وشهدوا بالمعاملة الحسنة التي تلقوها بأوامر الشيخ الذين كانوا يحرسونهم رغم ما قاموا به من وحشية. لم تستمر خطبة أبي لأمي إلا أسبوع واحد لكنها تأخرت كثيراً في الإنجاب ربما ثلاثة أو أربعة أعوامٍ ويقال كانت صغيرة جداً وعندما نضجت وتجهز رحمها ليكون سكناً أمنا لنا كل في حين بداية أنجبت أختي لميس، وكانت فرحتها تعادل انتصار البلد بالتحرر ونيل الاستقلال وكأن فرحها كان مؤجلاً حتى يثأروا لها ممن قتلوا أهلها. بعد ولادة لميس بعام ونصف أجهضت بحادثة مؤلمة أيضاً وكانت في شهرها الثامن عندما قدم عمي مصطفى ورماها أرضاً لأنها وقفت في

طريقه تمنعه من ضرب أبي جن جنون عمي لتدخلها، وأخبرتني أمي أنها لا تتذكر إلا وهي في عيادة دكتور عام تقول لها الممرضة: للأسف لقد تلقى صدمة قوية ولم يسلم، حزنت أمي كثيراً لأنها علمت أنه ذكر وعادت لتنتظر المولود الثاني بخوف شديد أن ترث أمها ولا تتمكن من الإنجاب ثانية لكنها أنجبت ريم وانتظرت لسنوات كانت كافية لأنضج في رحمها وتلدني في عام النكسة، انهزم العرب في هزيمة للنفوس والجيوش وانتصرت أمي حيث أنجبتني. وصفق ضيوفي بسخرية أو إعجاب... أخذوا استراحة من التاريخ وتلهوا بالضيافة قبل أن توزع عليهم الهدايا وأمطرت السماء أيضاً حتى جرف الماء بعض البيوت فتوثق تخرجي بيوم الطوفان الجديد

وسالت أنهار الخير والفكر، وبدأ الماء يحيي ويميت. كثرت الطوفانات والعطش وزرعت الحقول تناقضات بدأت ولن تنتهي ...

*****

الماءُ

"وجعلنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حي"

(١)

تكاثفت السحب، غضبت البحار وعلت أمواجها جبال متحركة، تدفقت بغضب الأنهار، بلا لون تسيد الماء الحياة وبألوانه المشهورة الأسود والأزق وسكونه وبروده جعلتني سباحاً ماهراً حيناً وابن الصحراء كثيراً من وقت، تملني الأمكنة والمرأة الوحيدة التي سجنني بحر هدوءها داخل شطآنه.

- بعد أن تخرجت وعدت إلى مدينتي فقدت الكثير من المتع وأهمها سهراتي الليلية ولقاءاتي الحميمية مع جاراتي وصديقاتي وأحياناً أشتري لنفسي ليلة أو أكثر فصارحت أمي برغبتي بالزواج ولكنني ابتدأت الحديث بأمور العمل وكنت مرتبكاً جداً فأنا في نظر أمي طفلها المدلل الذي لم يطلع بعد على عورات النساء أمي كل شيء في العمل جيد، لكنني متوتر قليلاً فسيحضر معي موجه تربوي غداً أحضر الدرس لا أريد أحداً أن يقاطعني صدقاً أحتاج الوقت.

-نعم بني لن يلهيك أحدٌ ولكن لما التحضير هل نسيت ما تعلمته.

-لا أمي ولكن على المدرس أن يحضر لكيلا يضيع بتشتت الأفكار ويضيع معه التلاميذ.

أحضرت لي كأس شاي وبدأت أقرأ بصوتٍ مرتفعٍ

تولى السيد الرئيس حافظ الأسد منصب رئاسة مجلس الوزراء ووزير الدفاع ثم ما لبث أن حصل على صلاحيات رئيس الجمهورية عام ١٩٧٠ ليثبت في ١٢ آذار ١٩٧١ رئيساً للجمهورية العربية السورية لمدة سبع سنوات بعد إجراء استفتاء شعبي وبعدها أعيد انتخابه في استفتاءات متتابعة أعادت انتخابه برضا وولاء ومحبة أعوام ١٩٧٨ و١٩٨٥و١٩٩٢و ١٩٩٩. وقد نال استحساناً ومحبة من العدو قبل الصديق وفتحت أبواب الحضارة على مصراعيها على كل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في سورية حيث تم بناء أكثر من جامعة في عهده منها جامعة تشرين في اللاذقية وجامعة حلب وحماة وجامعة البعث في حمص

كما عمل على تحرير المرأة ومساواتها بالرجل واعتبرها نصف المجتمع. وقد شهدت المنظمات الدولية تفوق سورية بهذا المجال وشجع الرياضة والرياضيين وأرسل رواد فضاء سوريين مع بعثة عالمية وتم في عهده استضافة

دورة ألعاب البحر الأبيض المتوسط. وبذلك كسب قلوب الجماهير ليس السورية بل جميع الوطنين والمقاومين في العالم فقد احتضن المقاومة الفلسطينية ودعم قادتها، وواجه العالم بدعمه لانبثاق وولادة فجر جديد للمقاومات بنشوء حزب الله في الجنوب اللبناني وحصوله على الانتصارات ودحر العدو الإسرائيلي من الجنوب ومع ذلك لم يكن كل شيء كما كان يريد الرئيس فقد استغلت بعض الشخصيات انشغاله بقضايا الأمة والسياسة الخارجية وبدأت تحفر ممرات للفساد في كافة المؤسسات وما زاد الوضع سوءاً تمرد الإخوان المسلمين في حماة بعد تفجيرهم مدرسة المدفعية في حلب وتفجير الأزبكية وقيامهم بسلسلة من التفجيرات والاغتيالات التي طالت ضباطاً وعلماء وأطباء

- جاءت أمي ضاحكة وقالت: ما سمعتك تقول جديداً ارتاح أنت وأنا أذهب وأشرح لطلابك هذه المرحلة وسيكافِئني الموجه لأنني أحفظ هذه المعلومات كأسمائكم بني

-خجلت من أمي وقلت أحضري فنجانين من القهوة سأسر لك بأمر أريد أن أتزوج يا أمي، فما عدت أطيق

صبراً هنا الوضع مختلف عن دمشق قلت بمكرٍ لا تعلم أمي ما قصدت: لقد وجدتُ شريكة العمر، ستعجبك جميلة أكثر من الجميلات طيبة القلب وليست سخيفة الطلبات، اجتمعت بها، وما قبلت أن أستدرجها وافقت على طلب الزواج بشكل رسمي المهم أنها تشبهك.

- والله لو لم يقل الناس أم جابر جنت لزغردت لك بني. سأخبرك هي تلميذتي ولم تتجاوز السادسة عشر لكنها والله تبدو أكبر من ذلك...

جُنِنتَ يا جابر هي طفلة وحرام هل أهلها يوافقوا على تزويجها؟

-قلت بصوتٍ غاضبٍ: لن أتزوج فتاة خرجت واختلت بالرجال

-استغربت أمي وقالت: ليس ابني من يقول هذا الكلام "وين أنت عايش؟"

-أمي هذه رغبتي ولا أريد نقاشاً.

-كما تريد من هي فتاتك؟

-هي وحيدة مثلك ووافق والدها عندما أخبرته أنني أستاذها والظاهر يعرفون المعمل وبعض الأشياء، يحب

والدها النابلسية وزنود الست أمي وضمن أنه لن يشتهيهما بعد زواج ابنته من الحلواني...
سأترك لك مهمة إخبار أبي وسنزور أهلها في الأسبوع القادم.
-بهذه السرعة، ومتى تحدثت مع والدها؟!! فكر جيداً هذا زواج وليس قميصاً تشتريه وعندما تصل البيت ترميه كعادتك.
-أمي أرجوك أخاف أن يأخذ سالم خبر ويسبقني ويتزوجها لا شيء يردعه ثقي يفعلها فقط ليهيننني
-لا أعلم من أين خزنتم لبعضكم كل هذا الحقد.
-ليس في قلبي حقد أمي لكنه وكر من الشر والشوك أنجبته لابد الشياطين.
هذا الصيف سوف أتزوج وهذا سيفرح أبي بلا شك...
- سينقص عرسك وجود بعض الأقارب في الجيش حيث الاستنفار مستمر بسبب الحرب في الكويت
- أمي حروب منطقتنا لن تتوقف وتقتلني رغباتي وتمتلئ كليتيّ بالحصى لو انتظرت شهراً آخراً!!
لو انتظرت حتى يعم علينا السلام... استدركت وقلت لن أبقى أعزباً والعروس لن تنتظر وبغنج الابن المدلل قلت:

من يومين قلتِ لي أنك متشوقة لرؤية أولادي، كانت هذه المحادثة كفيلة بجلب العروس ذات اللحظة لهذا لم يتأخر عرسي.

****

(٢)

تزوجت بعرس تكفي تكاليفه لإطعام قرية من الجياع لشهر

أخذت سوسنتي لنقضي شهر العسل في لبنان وفرحت جداً ببراءتها فقد كانت تفرح في أي شيء أقدمه لها، وكانت سعادتي بولائها وعبوديتها الفطرية أكبر من متع الطعام والشراب والنساء معاً. لم تكن إلا مهرة استطعت ترويضها بسرعة، وأخلصت لها إلى ما شاء الله.

أنجبت لي ابني حافظ بعد تسعة أشهر فقط بداية لم أوافق أبي على الاسم فقد كنت سأسميه أحمد على اسمه لكنه أصر بسبب محبته الكبيرة للرئيس وكان يضحكنا دائماً أنه تفاءل بحمل أمي بريم وكان يقول لها سأسميه حافظ وكانت ريم بنتاً فقرر تسميتها حفيظة فأقسمت له أمي أنها ستترك البيت وعارضت بالبكاء الشديد... ولم يستمع لي ولم يناقشني باسم ابني بل ذهب مباشرة وسجله في الدوائر الرسمية خوفاً من أن نفكر في تبديل الاسم فقبلت برضوخ... ومازحته لم تستطع يا أحمد باشا من إنجابه إنما

أنا فنبشته لك من تحت حصيري نعم هو هديتي لك أبي ولكن لا تنتظر أن يصبح رئيساً...

شعر ربما بالغبطة فغير الحديث وقال لي: يقولون تحررت الكويت من صدام، ولكن من يحررنا ممن حل محله يا ترى؟

لا تقلق على الكويت اقلق من القادم الذي تخطط له أمريكا ولا تظنها تدعم إسرائيل لزرقة دماء اليهود...

جاء غانم ليبارك لي بسلامة زوجتي وميلاد ابني فقال: حاول أن تتقن تربيته فأنا لم أنجح في تربية أولادي ولم يعجبني اختيارهما، الجيش مهنة وانتماء سيف وأسامة كان يمكن أن ينجحا في الحياة

-غانم وكأنني غريب عنكم ولم أتدخل بكم بعد أن زوجت ابنتك الغالية ميرا لمصطفى هل نسيت أنه ابن سالم والعرق دساس. وكأنني لست خالها ولا أحد يقدر مشاعري ومحبتي لكم... غانم والله ميرا تزوجت ابن سالم عشقاً دعمته أختك ووافقت قائلة ما ذنب مصطفى... لم أتحمل هذا القرار ولكن أدعو لها بالتوفيق فقد درس علوماً سياسية ويبدو مختلفاً عن والده بعض الشيء

ويعمل في مكتب تخليص جمركي في المنطقة الحرة وعمله منجم من الذهب لكن لا تسألني كيف؟
وهل المال كل شيء؟ تستطيع أن تطعمها المال إن أرادت.
-أكيد لكن تربية سالم مختلفة زرع ابنه في المنطقة الحرة لأسباب هو فقط يعرفها.
- نعم زواجها غير موفق ولم يكن فشلي معها فقط، فسيف ابني المدلل الذي كنت أحضره ليكون مثل خالته طبيباً إلا أنه اختار الأكاديمية العسكرية للعلوم الهندسية وبسبب طيشه فقد تعارك مع مديرها ورسب في علومها فنقلوه إلى الكلية العسكرية أقله فيها كان تعلم الهندسة وتفتح عقله بدلاً من مسحه تماماً وإعادة برمجته رغم مجموعه العالي في الثانوية
وأسامة مثله انتسب إليها غصباً عني قائلاً مللت الدراسة ولا أحب العمل معكم يوماً، وأنا أحب ثياب الجيش تغريني تكسب هيبة للشباب تصدقني هذا منطق ابني، كأنني يا جابر لم أنجب أولادي لم أجلس معهم لم أسهر الليالي أقرأ لهم؟ الأولاد ليسوا لنا هم أولاد البيئة التي نشأوا بها...

(٣)

تتالت السنوات بسرعة عجيبة وصار حافظ ابن العاشرة يشبهني تماماً، ابنتي رشا لم أتطرق لولادتها التي جاءت بعده بسنوات قليلة لا أتذكر تفاصيلها ولكن وفي العاشر من حزيران في الألفية الثانية ولدت زوجتي ابنتي الرائعة أريج بظروف صحية كارثية لم تكمل الشهر السابع في رحم أمها واستعجلت وخرجت لتكتشف الحياة سبقتها كمية كبيرة من المياه الزائدة المحيطة بها أو ما يسمى السائل الأمنيوسي، مما تسبب بتمزق رحم أمها ومعها استأصله الدكتور بعد أن وقعت بالموافقة، تركتهم في المشفى بعد أن تلقينا خبر وفاة الرئيس حافظ الأسد، وتلقيت من غرفة الإنعاش أسفاً بوفاة أبي بجلطةٍ قلبيةٍ، لم ينتظر أبي الذي أحب الرئيس ونبض قلبه بمحبته حتى أواسيه وأخبره بميلاد طفلتي، اختار مرافقته إلى القبر، والسماء...

- وقع خبر وفاة الرئيس على الناس كالصاعقة

تذكرت قول أبي إن الرئيس قال في أحد خطاباته جملة للتاريخ احفظوها وعلموها في مدارسكم لا تنسوها: "

الوطن يغلو فوق كل غالٍ ولا يوازيه شيء في ضمائرنا وعقولنا "

-فقلت لصديقي الذي جاء لتقديم واجب العزاء لي من محافظة حماة، ليس من شيء مهم في هذه المرحلة كالحفاظ على سلامة البلد من الفتن وكل خير الله يبعثه،

-قال: بالتأكيد نعم نساء سورية ولادات والوعي كبير إن شاء الله، لم يكن أحد من الناس عنده تصور بما ستؤول إليه الأمور

لكن السياسية كانت حاضرة؛ تعدل الدستور وأصبح الرئيس بشار الأسد ابن الرئيس حافظ الأسد رئيساً للجمهورية العربية السورية يتابع مسيرة والده على نفس المنهاج... لأول مرة أشاهد عمي عاصي يبكي بحرارة بصراحة بداية ظننته يبكي أبي ولم أتأكد أكان يبكيه أم يبكي الرئيس إلا بعد أن سمعته يقول: فقدناك يا أنبل وأعظم من دافع عن الحق العربي ودافع عن فلسطين في زمن تكالبت كل الأحقاد المرتبطة بالمشروع الصهيوني، ونقول فقدنا برحيلك العزة والكرامة كم سأشتاق لسماع خطاباتك ففي كل مهرجان خطابي عندما أتابعك على الراديو وكنت أول من اشترى تلفزيون في المدينة فقط

لأشاهد طلتك، لكنني لم أحبك كما أحبك أخي أحمد فقد حفظ خطاباتك كلها كالفاتحة، قلت لغانم: سوف يتغير كل شيء، والفاسدون لديهم فاصل ليتنفسوا الصعداء معهم فترة ليستريحوا على واحة الأموال التي جمعت من كل هؤلاء الذين يعانون القل رغم تقدم الناتج المحلي والنفط ...

-قال سالم: موجهاً إليّ الكلام بنبرة قاسية قم واستقبل الناس وافتح عزاء باسم ابيك ولا تنسَ أنت وغانم انشروا صوراً للرئيس في مبنى العزاء.

-بحضور سالم كنت عديم الجدوى فلا يترك لي مجال لأستقبل أحداً ولا لأرد تحية لصاحب جاه أو متأنق بالشغل، كل من حضر بصوته المرتفع وحنكة كلامه...

وانتشرت سمومه في جسدي حتى أنني نسيت أبي وتركت مجلس العزاء باكراً لأسمع كل أنواع الشتائم في اليوم الثاني:

- الوحيد متل البنات لا يعرف الواجب كان على جابر أن يكون أول الناس ويبقى إلى آخر السهرة

-قال آخر: لا ليست القصة وحيد، أنا ابني وحيد لكنه رجل، هذا من الدلال وكثرة الأموال.

انتهت أيام العزاء قبل أن أموت بقليل... مجهد أن تقوم بأعمال لم تكن أبداً قد مرت في حياتك... وما عشته بوجود أبي هاجر دون عودة وجابر مع والده ليس جابر بلا أبٍ أو سندٍ، ولم أنظر في عيني أريج قبل شهر أو أكثر.

استأنفت عملي الذي أحب داخل صفوفي وفي مهنتي التي تشعرني بالرضا والسعادة بشرح ليس من داخل المنهاج:

إن الأمور تسارعت وتم انتخاب الرئيس بشار الأسد رئيساً للجمهورية لسبعة أعوامٍ وعلينا أن نكون مواطنين مخلصين كل من مكان عمله يصلح أي خللٍ يجده ويقدر عليه في بيئته، بذلك نكون مع الرئيس ومع البلد نبنيه ليكون داراً واسعاً يؤمن لنا حياة كريمة وهذا ما جاء في خطاب القسم.

فقد رسم الرئيس خريطة تطوير قابلة للنجاح رغم تخفي الفساد في جلابيب مدراء مكاتب ووزارات ومؤسسات ولكن الناس كل الناس قادرة على المضي فيما لو أرادت أن تكون فاعلة. وبعد مدة قصيرة جداً مقارنة بما سبق تغيرت حياة الناس للأفضل في السنوات العشر الأولى من حكم الرئيس بشار الأسد ولم تتوقف خلالها الحروب على أية حال ولا مناوشات إسرائيل؛ فكان الاتهام جاهزاً

موجهاً لسورية لو حدث بركان في القطب الشمالي فالحكومة السورية طرف فيه بالتأكيد!!!

كل شيء كان يعيق التطور ولكن حركة العمران ازدهرت والدخل الفردي تضاعف... وتنفسنا الصعداء وصار الموظف يركب سيارة حديثة وفي بعض الأسر تمكنت الزوجة أيضاً من امتلاك سيارة ثانية، وصار الموظف يخرج مع عائلته مرات في السنة في رحلات داخلية وخارجية وازدهرت السياحة الداخلية والخارجية وصار شهر العسل في تركيا شبه تقليد وصارت الرحلة إلى دول الجوار كالنزول إلى البحر القريب، كان ذلك من المستحيلات قبل خمسة أعوام فقط.

قامت الحكومة بالاهتمام بالشبكات الطرقية والبريد والخدمات الصحية والتعليمية يوازي ما تمتلكه أكثر الدول حضارة، ولكن ذلك على ما يبدو محرمٌ علينا نحن أبناء العرب والسوس ينخر في مواسمنا من الداخل والخارج.

****

(٤)

لم تتأخر المصائب الكبيرة وتلبدت سماواتنا بالحروب، وبدأت مرحلة أنفاق التدمير تحفر تحت هذا ليتعثر كل إصلاح... وبدأت في الدول العربية انتفاضات شعبية سماها الإعلام ثورات، وقالوا أنّها جاءت نتيجة الحاجة وفشل السلطات والكثير من الظروف لتدعمها الأنشطة الفيسبوكية التطبيق حديثة الظهور والتي جذبت إليها الشباب كما العسل يجذب النحل والذباب مع اختلافهما.

كانت حادثة الشاب التونسي الذي أحرق نفسه نقطة فاصلة في التاريخ العربي والتونسي، وبتتابع الأحداث في بلده ترك الرئيس زين العابدين بن علي سلطة تونس للمجهول، ومات بعد سنوات في السعودية، البلد الذي شجعه على ترك قصوره، وسلطته واستقرار بلده.

أما في مصر جرفت الاحتجاجات ولوت ذراع رئيسها حسني مبارك وسلمته لقضبان فرعونية القوة، وأخرجته من السلطة وتسلم بعده الإخوان المسلمون ولم يتعلموا من دروس الماضي وأمسكوا العصا في وجه كل معارض لأفكارهم و دون رؤية لمستقبل البلد وتطوره واللحاق

بركب الحضارات العالمية، ومؤكد شعب مصر خُدع من جديد وخرب الإخوان وغيرهم الثورة وفرز لهم رئيساً جديداً لا هو يحمل فكراً متشدداً ولا رؤية لمصر كما تستحق وتعيش مصر اليوم معه، التناقضات ولم يكن فشل الثورة موضوع امرأة في جلباب ورجل ملتحٍ ليس الموضوع قشور فقط ارتدتها تلك التي سميت ثورات بل ثياب عرت حتى ليبيا من رئيسها أيضاً ومن الأمان فقد أعدم معمر القذافي بابتكارٍ جديدٍ للتعذيب هذه المرة منتجه المخابرات الأمريكية والجشع العالمي وابتدأت نزاعات تبدو قبلية وهي في الحقيقة عالمية على فخذها النفطي الثمين...

****

(٥)

بدأت الماء بالحفاف واستعرت نار بدأت تلوّح باتجاهنا وبدأت الاحتجاجات التي كنت -والكلام في سركم-أراها تتعلق بين خيوط الحق والبهتان، فقد تفاقم الظلم والتفاوت وكبرت بطون الجشعين في حصصي الأخيرة سألتني طالبة:

- نعم أستاذ أتعني هذه المرحلة هي نكسة حقيقة؟

كانت طالبة جديدة لم أرها من قبل وبصوتٍ رخيمٍ أوقف تسلسل أفكاري أجَبنَ:

نحن نعيش مرحلة انتقالية الآن في المنطقة عاشته أوروبا سابقاً، هذه الفتاة نالت المرتبة الأولى في الثانوية العامة في نهاية العام الدراسي ذاك.

تلك نفسها التي أصبحت زوجة سالم

الجديدة وهو الستينيّ أصر أن يتزوج من طالبتي التي كرمتها لتفوقها وسجلت لها على منحة دراسية في جامعة خاصة، تخلت عن كل شيء بشيطنة سالم وتسرع الفتيان في اتخاذ قرارات مصيرية نهدم بها حياتهن.

رافقته حتى أنهى حياتهما ولكي يضمن سيطرته خرج الإبليس من داخله وزجَّ بوالدها في السجن وتسبب بطلاق أمها، وقبل أن تنقضي العدة أحضر لأمها خطيباً عراقياً، الله أعلم كيف تعرف عليه وورطها وورطه.

مما اضطر أخويها الالتحاق بقوات الجيش بدل من إنهاء دراستهما... كنت على قناعةٍ تامةٍ إذا مر سالم فوق الذهب تحول إلى أشواك...

وهو بدوره استمر في تصيّد أخطائي وأرسلني مراتٍ إلى السجن، يكتفي لإخراجي ببكاءِ أمي ومبلغٍ من المال... وعلى قول المثل "من لا يخاف الله خافوا منه".

في إحدى سهراتي بغانم أخبرته أن علاقتي بزوجتي سيئة ولا تقابلني بالاحترام وبالحب الذي كانت تقدمه لي سابقاً.

ولأن غانم أخبر لميس بذلك فقد تأثرت علاقة زوجتي بأخواتي وأمي.

-قالت لي أمي: لا تتخاصم مع زوجتك هي كغيرها تأثرت برياح التغيير وطول بالك عليها لو لم يشغلها الهاتف والحاسب لبقيت كما تريدها لكن الفيسبوك سوف يخرب بيوتاً كثيرة تذكر كلامي يا جابر.

(٦)

جاءت التعليمات بضرورة توجيه الناس بضرورة إعادة انتخاب الرئيس، لهذا كل من موقعه قام بما يدعم الفكرة وأنا بدوري كنت مقتنعاً جداً بأن انتخاب الرئيس مرة أخرى يعزز التطور الذي بدأ به ويتم بفضل جهود الجميع وبما أن الطلاب لا يحبون المناهج ولو تحدث معهم الأساتذة لساعات خارج الكتاب لا يملوا ولكن فقرة واحدة من المنهاج تجعلهم يتصببون من العرق، ويتأففون ويتململون لهذا أخبرتهم أنني لن أعطيهم درسَ اليوم بل سنتحدث كالأصدقاء:

-وكأنه بعد وفاة الرئيس حافظ الأسد فتحت شهية العالم على سورية ورئيسنا الشاب في حين بعض الحكام لا يتقنون قراءة التقويم. والرضا الدولي ومحبة الناس يجعل من واجبنا دعم وإعادة انتخاب الرئيس بشار الأسد لولاية رئاسية أخرى، يعد ذلك أمراً عظيماً ووطنياً وعلى كل حال واقعنا وسيظل هذا التاريخ محفوراً على وجه سوريا وهو اليوم أمراً حتمياً وضرورياً لكن لا نعلم ما يختبئ في زوايا الزمن؟

قال أحد الطلاب: إسرائيل قوية لن تسمح لسورية بالنهوض ثقوا بذلك. التاريخ يعيد نفسه بشكلٍ متكررٍ دائماً.

وفعلاً أُعيدَ انتخاب الرئيس بشار الأسد لولايةٍ ثانيةٍ ولكن بالتوازي اشتعل جمر الحقد حول سورية وبدأوا ينفخون عليه النيران، نيران الجشع وفساد الداخل، ومن الخارج رشّوا عليه الوقود أعداءٌ كثيرون...

-أستاذ... صوتٌ جاءَ من آخر مقعدٍ وبثقةٍ: تواجه سورية في الظاهر ضغوطاً خارجية كبيرة في عهد الرئيس بشار الأسد كمحاولة إخضاع بل إذلال القرار السوري لإمرة الولايات المتحدة وإرغام سوريا على توقيع معاهدات سلام مع إسرائيل وتصفية المقاومة الفلسطينية حماس والجهاد الإسلامي وغيرها من فصائل المقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية حزب الله. يتهمونها بتسهيل تسلل المجاهدين العرب إلى العراق لقتال الجيش الأمريكي الذي دخلها منذ العام ٢٠٠٣، لقد داس بدخوله إليها على رؤوسنا جميعاً دون أن نرفع نظرنا بالرفض ومن تلك اللحظة علم العالم ضعفنا وجبننا وأن في داخل كل عربي

سالم صغير يبيع كرامته بكرسي أو سروال وأحياناً بعلبة سجائر فاخرة وثوب فرنسية شقراء.

- سألته دون أن أركز على كل ما قال أيُّ سالمٍ تقصد؟

- قال بحزمٍ: عفواً أستاذ أرجوك اعذرني هو نفسه وهل من سالمٍ كسالمكم؟

- لا أسمح لك تفضل وممنوع أن نتكلم عن أحد.

صمتَ لبرهةٍ ثم استأذن للكلام وبتهذيب سألني: هل تعلم أن الأستاذ سالم أجرنا بيتاً، ولأننا لم ندفع له في الموعد المحدد أخرجنا واحتفظ بالبراد والغسالة وسجن أبي لستة شهور...

وطرد أبي من عمله وبقينا مدة ننام فوق بعضنا في غرفة مرهقة كأمي.

تابعت ما بدأته متجاهلاً أمام الطلاب ما قاله زميلهم: زاد إضمار العداء لسورية بعد قيام الحرب بين حزب الله اللبناني وإسرائيل في شهر تموز٢٠٠٦ عندما اتخذت سوريا بالتنسيق معه موقفاً دفاعياً رفع جاهزة العدو لأعلى المستويات لأول مرة منذ حرب تشرين التحريرية سنة ١٩٧٣.

خلال هذه السنوات كان يُحضّر لعمل عدائي ضد سورية أيضاً فقد تم اغتيال عدة شخصيات لبنانية معظمها ممن يعلن عداءه لسورية ومن بينهم اغتيال رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان آنذاك بشكلٍ مباشرٍ وقبل بدء التحقيق وكما تتهم جارة فاسقة زوجها الطيب بارتكاب الفجور لتغطي أفعالها اتُهِمَتْ سورية بقتله، وقبل أن تخمد النيران المشتعلة في جسده. وقد أعطاهم الحجة توتر بسيط بين الرئيس الحريري والسلطة في دمشق في أواخر فترة ترأسه الحكومة في لبنان. أخذ الاغتيال ذريعة للضغط على بلدنا الذي انتعش اقتصادياً رغم كل هذه الظروف ومع أن الحكومة السورية نفت اغتيالها له قطعياً. إلا أن الجيش السوري المتمركز في لبنان منذ ١٩٧٥ انسحب جراء تلك الاتهامات في نيسان ٢٠٠٥ كلياً.

وفي عام ٢٠١٠ أعلن سعد الحريري بن رفيق الحريري والذي حل محله في رئاسة الحكومة اللبنانية أن اتهام سورية كان خطأً وقد جاء موقف الحريري بعد زيارات متكررة قام بها إلى دمشق التقى خلالها الرئيس بشار الأسد، وبعد ذلك تراجعت عزلة بلدنا سوريا وفتحت إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوبانا اتصالات مباشرة

مع الرئيس الذي أعاد سورية صبية يتطلع إلى جمالها ونهضتها العالم مع وجود الفاسدين الذين استغلوا مواقعهم ليحققوا مكاسب شخصية.

في حصة منفصلة سألت: إن كانوا يتابعون أحوال البلد وأنّني أعتقد أن الخير قادم مع رحلات الرئيس وقلت لهم: الانفتاح على العالم يجعل من دولتنا الصغيرة عالماً كبيراً.

-ضحك طالب من كلامي تجاهلته لأنها المرة الأولى التي ظهر بها مشاغباً!

عندما يقابل رئيسنا الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي كما يقابل أعظم القادة ومثله الملك الإسباني فهذا يعني أن بلدنا ليست نقطة عشوائية على خريطة العالم بل نحن شريان حياة ينبض به الرئيس هذه الفترة وكل الناس، و العلاقة المميزة التي ربطت سورية مع تركيا كمؤشر على صوابية الرؤى ووحدة الشعوب ، انظروا كيف صار اسم أردوغان يطلق على أولاد السوريين محبة وشكراً للانفتاح التركي ولكن انتشار البضاعة التركية في الأسواق جعل الصناعيين السوريين في مواجهةٍ وكرهٍ حقيقي لهذا الانفتاح... إلا أن الرئيس وسورية صارا وجهة للعالم العربي وزهرة الشرق التي تتفتح لتعطر العالم حتى

العاهل السعودي عبد الله بن عبد العزيز قام بتأكيد العلاقة القوية مع سوريا وقابل الرئيس بمودة وعادت أمومة سورية للعالم العربي لكن تعوّدَ بعض ناكري الفضل وضع أمهاتهم في دور العجزة وجاء يوم تأفف هؤلاء من أمهم سورية.

****

(٧)

عندما كنت أعود إلى بيتي سابقاً أغلق الباب على التاريخ والسياسة فزوجتي كانت تريدني أن أبقى مراهقاً يقابلها بالغزل والهيام، أما الآن فلا أراها إلا نادراً، بداية أعجبني هذا الوضع جداً فكان عندي الوقت الكافي لأسهر مع أصدقائي ولأزور أمي المريضة كل يوم ولا أتذكر وجودها إذا وجدت أشيائي مرتبة وطعامي جاهزاً، ومن المهم عندي الهدوء وبالرغم من وجود مستخدمة في البيت إلا أنني أطالبها هي بتقديم كل شيء لي وكانت حاجتي لها كزوجة تمر باستسلامها كقطةٍ بعد عراكٍ وقتالٍ، وقد تغير كل شيء بعد أن أنجبت ابنتنا أريج ولم تسامحني على موافقتي باستئصال الرحم من يومها صار خوفها على حافظ وأختيه مرضي، وعلاقتها بي شبه مقطوعة منعت حافظ من الخروج والاستمتاع بأي شيء بعيداً عن نظرها لهذا اضطرتني للتدخل وسمحت له بقضاء العطلة مع أختي رغد التي تحيطه بالحب والرعاية كأمه وأكثر، وكانت تتابع معه دروسه كلها وبما أنه يحضر للشهادة فإن وقته محسوب بالدقيقة وكانت زوجتي تسافر عند أمها وأبيها في

القرية بعد هجرة أخويها إلى أمريكا وكندا عند أخوالهم الذين هاجروا في خمسينيات القرن الماضي إلى البرازيل وأولادهم انتقلوا إلى أمريكا وأوروبا وانتشروا فيها ووصلوا إلى مجالسها البلدية والوزارية أيضاً وكان ابن خالها عضواً في مجلس العموم الأمريكي

****

(٨)

هذه الظروف جعلتني أستمتع بوقتي مع الأصدقاء والأساتذة الذين يشغلهم وضع البلد وكانوا كثر، كنت أعلن لهم دائماً عدم ثقتي بتركيا: الله يجيرنا من تركيا، تركيا عدو والعدو لابد له مصالح وما يفعله أردوغان من تمثيليات بدعم غزة في فلسطين وزياراته المكوكية إلى الشام لابد مغطاة بدهاءٍ يخفي شيئاً مريباً لا محالة وكان البعض يعتقد أن كرهي ومحاربتي للبضاعة التركية بسبب انتشارها الواسع ومنافستها لإنتاجنا من الراحة والبسكويت وحتى الخبز ولم تكن هذه الاتهامات محقة، وصدقاً لم يكن ذلك يشغلني ورغم تأثرنا إلا أن أوضاعنا بقيت جيدة فنجن لا نعتمد على المعمل، لا أحد من عائلتينا إلا وحاصل على شهادات وعنده عمله الخاص و نتحصل على المال من الشاليهات البحرية التي نؤجرها لأبناء الداخل في الصيف والتي أصبحت سكناً دائماً لهم في الحرب القائمة، والمحلات التجارية ومحطات الوقود وقد اشتريناها في زمنٍ لم تكن تكلفتها بأكثر من إنتاج المعمل لأشهر، ومع ذلك بقي ارتباطنا بمؤسسات الدولة

قوياً وكان ذلك وهذا سر للحصول على القروض ليزيد في فرص امتلاك ما نشاء من شركات وأعمال ، فعلى الرغم من أننا لا نستغل أحداً، إلا أننا كنا أصحاب رأسمال كبير ومازلنا لكن هجومي على تركيا: أن البلد كان يتهدم من الداخل فالتجار امتعضوا والمزارعين والخياطين كل الصناعات تدهورت أوضاعها في ظل هذا الانفتاح على تركيا، وخرج من قبره الحقد على العثمانيين من جهة والولاء لها من جهة ثانية حقد دفين وولاء غبي في نفوس الناس سيتصادم قريباً ويشتعل كقطبين.

نقول بعد كل ضحكة "الله يجيرنا من هذا الضحك" وفعلاً لم تطل فرحتنا بالتطور والعيش برفاهية فليس من بعيد جاء العام ٢٠١١ لتبدأ بعده أيام الجحيم...

****

(٩)

بدأت الحكاية الحقيقة على شاشات التلفزة وعلى شاشات هواتف الجيب التي وزعت بأسعار مقبولة وضمن القدرة الشرائية المدروسة جيداً لتحفيز الناس على إيجاد المال ولو من جيوب الشياطين؛ فإن هاتف الجيب أهم من الابن والزوجة أهم من البيت والزوج أهم حتى من الهواء والنظر، ومهم أكثر من أي شيء مر على الإنسان منذ بدء الخلق حتى أيامنا هذه.

آمن به الصغير ابن الشهور والشيخ الهارب من القبر أقله في المدن، في الريف أقل انتشاراً هذا الهاتف جعل من الإنسان أينما وجد مواطناً عالمياً بامتياز لن تكون إلا ابناً باراً لشبكاتٍ عالميةٍ تدخل معك غرفة نومك وتدربك وتقدم لك المتعة والتسلية، وتقدم لك ما حلمت به وما لم تتخيله مهما كان ذكاؤك خارقاً.

بنجاح وبذكاء من الأعداء واستغباء الحكومات والشعب معاً، استخدم هذا الترياق كسمٍ قاتلٍ بطريقة الانتحار الجماعي... وبث العدو الذي خطط لكل شيء ما يشاء عليه، وقد سبقته محطات عملاقة لبث الأخبار والفتن.

كان الفتيل الأول بعد ذل العراق، قصة الشاب التونسي

-قالت ابنتي رشا: أتذكر سألتك أبي يوم بدأت الحرب هل ستنتهي وهل فعلاً هذا الشاب كان فقط سبب تخلي بن علي عن السلطة مع أنني يا أبي كنت في الصف السابع... أما أريج فقد سألت إن كانت ستكبر والحرب ماتزال قائمة أم ستنتهي قريباً

سألني حافظ: ما رأيك أبي هل قصة البو عزيزي حقيقة أم عمل مخابراتي؟

لقد مللنا منه ومن قصته وأظن المخابرات الأمريكية عملت منه بطلاً لأنجح الأفلام الواقعية وهذه المرة الأخيرة التي سأذكره.

-إن تطور الأحداث في المنطقة العربية وإمطارها بغيوم التغيير قلب الدنيا أكثر من زلزال...

قالت زوجتي بحزنٍ: ما الذي يشغل المرء أكثر من مستقبل أولاده وقد بدأ هذا الخطر دون أن ندري بالاقتراب...

-فعلاً بدأ كل شيء كعاصفةٍ بعد يومٍ صافٍ، بداية كانت مع الإعلام وانشغال الطفل والكهل بأحداثٍ دراميةٍ

-قال حافظ بتهكمٍ: أجبرتنا على حفظها كأنها منهاج دراسي وكنت يا أبي تتابع معنا صوره وكل خبر عنه كنت تصر أن نشاهده، وقد سألتك عن السبب؟

-قلت لي لتحفظ لأولادك ميلاد منطقة جديدة غير تلك التي كانت قبل ذلك فأنا أتذكر بالتفصيل كل التلفزيونات قطعت بث صور رؤساء دولها ومواضيعها المحلية وتصدرت العناوين الشاب التونسي طارق الطيب محمد البوعزيزي الذي ولدته أمه في آذار لربيع يسمونه باسمه يشتعل فيه ويشعل المنطقة العربية بأسرها: شاب تونسي قام يوم الجمعة ١٧ كانون الأول عام ٢٠١٠ بإضرام النار في نفسه أمام مقر ولاية سيدي بوزيد، احتجاجاً على مصادرة السلطات البلدية في مدينة سيدي بوريد لعربة كان يبيع عليها الخضار والفواكه لكسب رزقه وللتنديد برفض سلطات المحافظة قبول شكوى أراد تقديمها في حق الشرطية فادية حمدي التي صفعته أمام الملأ، وقالت له: ارحل. فأصبحت هذه الكلمة شعار الثورة والفورات من بعدها للإطاحة بالرئيس، وكذلك شعار الاحتجاجات العربية المتلاحقة التي قامت بها السياسة باستخدام الشعوب أدى ذلك لانتفاضةٍ شعبيةٍ وثورة دامت قرابة

الشهر أطاحت بالرئيس زين العابدين بن علي وانتقل الحكم إلى جماعة متشددة لا تناسب تونس الخضراء جارة أوروبا وعروس العرب الشقراء، التي لم تعرف التعصب في يوم... أما محمد البوعزيزي فقد توفي بعد ١٨ يوماً من إشعاله النار في جسده. وأضرم على الأقل ٥٠ مواطناً عربياً النار في أنفسهم لأسباب اجتماعية متشابهة تقليداً لاحتجاج البوعزيزي وربما رغبة منهم بتمثالٍ عارٍ أمام حسناوات فرنسا كما أقيم للبو عزيزي تمثالاً تذكارياً سياسياً تخليداً له في العاصمة الفرنسية باريس.

ليشهد العالم بعد فترة وجيزة سقوط الحكومة الليبية وإعدام الرئيس معمر القذافي بطريقةٍ مُذلةٍ بيد ضابط قطري وقالوا لم نحنِ رأسَ صدام فقط بل نتلذذ بطرق التخلص من رؤوسكم فما أنتم إلا كما نريد؟

وهل من أحد ينسى بُني ذلك اليوم الذي قالوا لنا يوجد مظاهرات كبيرة في درعا وقتلى وعندما سمعت أمي بذلك أصيبت بجلطةٍ خوفاً على أولاد لميس وقبل أول جمعة من تلك الجمع المرتبة بأسماء عظماء مروا في التاريخ السوري، ماتت أمي وكأنها تركض خلف أبي لتخبره أن ما

بناه حبيبك الرئيس حافظ الأسد في ثلاثين عام بدأ بالانهيار.

تابعنا بخوفٍ ورهبةٍ الاحتجاجات التي قامت في المدن والتي ابتدأت في الجنوب تحديداً من درعا حيث وجهت السياسات الخارجية المعادية لسورية الدعوة إلى يوم غضبٍ سوري في ١٥ آذار عبر صفحات الضيف السياسي الجديد موقع فيسبوك هذا الموقع الذي تعرف عليه كما قلت سابقاً حتى الطفل الذي لم يتجاوز عمره السنة في سورية وهذا ليس مصادفة أو تطور طبيعي بل حالة اجتماعية، بدأ العالم الغربي بحثها عبر وسائل علاج تمنع الطفل من استخدام الهواتف الذكية لأكثر من ساعة ونصف هو في مجتمعاتنا يتهم نظرية المؤامرة باعتبارنا موتى مؤامرة تحيكها أيادي أمريكية إسرائيلية يهودية للنيل من العقول العربية وقولهم لندمرهم بهدوء وذكاء من الداخل ومنذ الطفولة لنكسب المستقبل.

بقيت أختي الطبيبة تقاوم إغلاق عيادتها في الجنوب السوري حيث التمرد والمعارك الكبيرة مع الجيش.

في الوقت الذي قررت معظم النساء والأسر عموماً ترك المحافظة وبقيت قلوبهم وعيونهم على رجال الجيش

الذين بقوا في مواقعهم العسكرية وعلى الحدود مع الأردن، والذين ارتقوا شهداءً في معظمهم لاحقاً في مواجهات متعاقبة مع الغرباء والمتمردين والقيادات الأردنية الأمريكية، وبسبب التسليح المتطور والتدريب المكثف من قبل القوات الأميركية المتواجدة على الحدود المتداخلة مع الأردن استطاع المتمردين السيطرة على مساحات كبيرة وبسطوا عليها سلطتهم لأعوام، بعدها جاء التدخل الروسي الذي انتظر منه السوريين أكثر مما قدم، وخصوصاً ردع الهجمات الإسرائيلية المتكررة، وكان مؤمل عليه أن ينقذ سورية من شباك أمريكا وتركيا وإسرائيل..

****

(١٠)

أيامنا مليئة بالأحداث مليئة كأزمنة الطاعون بالشهداء تفرغت نسبياً لأختي رغد؛ فقد كانت كالمجنونة قلقة جداً على زوجها وحبيبها ولم يكن قلقها من فراغ فقد أكد لها بالصورة والصوت أنه ميتٌ لا محالة وأنهم محاصرون من كل اتجاه من أشباه بشر تصرفاتهم، لهجاتهم الغريبة، لحيتهم، لغتهم، عدم إنسانيتهم كل شيء يؤكد أنهم وحوشٌ بشرية يملأ عقولهم مخدر الكبتاغون وهلوسات التشدد والتعصب لفكرهم اللا إنساني، وأكد لها حسن أنه محال أن ينجو ورفاقه منهم و لن يلتقي بنا إلا في الجنان وآخر كلمة كتبها في آخر رسالة لا تبكي أحببتكِ كثيراً كأمي.

استعجلت الحرب رحيل حسن الأبدي، والعصر بعد صلاة الجمعة من تشرين العام ٢٠١٤ رن هاتفنا الأرضي ودون مقدمات أو سلام وبلهجة المعتاد قال لي الشرطي: أستاذ جابر أنا من المخفر المجاور صهرك وابن عمك حسن بطل ونال شرف الشهادة، الله يرحمه. لم أكن أريد الهاتف أن يصمت كنت أريد أحداً ما أن يشغلني عن

البوح بما عرفت للتو لكنه صمت وكاد قلبي يتوقف معه جمدت الدماء في عروقي؛ أختي تنام في الداخل في بيتي منذ عودتها من مشفى درعا، ولأنها لم تنجب كان أولادي أقرب إليها من كلينا أنا وزوجتي، والبارحة آخر ما قرأنا رسائله، واحتفظت ذاكرتي بصورة له كانت في عينيه دمعة وعلى فمه ابتسامة، لعلها آخر الابتسامات

كيف يموت حسن؟

لماذا قبلت أيها التراب شرب دم حسن ولم يحمل في قلبه يوماً إلا الحب...

استُجيب لرغبتي ورن الهاتف من جديد:

-صوتٌ غريبٌ وصلني معزياً ومباركاً بأن حسن ضحى بنفسه لنعيش فقد شاغل العدو حتى انسحبنا قائلاً: أولادكم ينتظرونكم أما أنا فإنني أترك لرغد اسمي وما تريد لنفسها في الحياة.

وإن الغريب في قصة حسن أن أحد المقاتلين من أبناء المنطقة أوصل الجثمان إلى أقرب نقطه وهو ملفوف باحترام على غير العادة... وبعد مدة جاء تفسير ما حدث: أوصله أحد سكان القرية التي قتل فيها رغماً عن رفاقه الغرباء، وانضم من يومها إلى الجيش بعد أن عمل ما

يسمى تسوية ومازال حتى اليوم مع أسرته التي تزامن هربها مع انضمامه للجيش وبمساعدة بعض أقاربها، لم يكن من شيء مفهوم في علاقات السوريين فالعدو صديق والصديق عدو اختلطت المشاعر والمصالح...

ولكن صدقوني لم تكن يوماً حرباً طائفية رغم أن الحرب في مجملها ارتدت عباءة الطائفية والحلول الأوروبية كانت جاهلة لكيفية الحل لعدم فهمها لب المشكلة، فقد كانوا يقولون الحرب السورية... السورية ونصف الجيش السوري الذي يحارب على استعادة سلطة الدولة بنظر الغريب هو في الجهة الثانية ولكن السوريين كانوا منسجمين مع ذواتهم في معظم المناطق ولم تكن الحرب في واردهم يوماً وبقيت أنا وزملائي نتناقش بسبل الخروج من هذه الحرب حتى مات من مات ويتنظر البقية الموت أو الحياة بعيداً عن الحرب والكره والتقسيم، وزملائي يعني معظم المدرسين في سورية ومن جميع الألوان...

- حسن شجرة سنديان انقطعت جذورها عن الأرض والعزاء بفروع لها في السماء لكنني حزنت جداً على فقده وعلى شبابه حزين على لطفه، على إنسانيته حسن كان يقدم

المال اللازم لتعليم عشرة طلاب، استشهد حسن وبقيت رغد الغالية وحيدة إلا من ذكرياتٍ ووجعٍ لا يفارقها مات من ضحت من أجله بصداقتي واختارته رغماً عني... مات حسن يا جابر صرخت ملء صوتها سمعها الحي بأكمله، قال لها أسامة ابن لميس الذي حضر مسرعاً: خبئي لي يا خالتي بعض الدموع، عليكم أن تعتادوا على الموت أراني قريباً سألحق بعمي وخرج لكيلا تخدش دموعه رجولته البريئة.

فقال عمه غيث الذي التحق بخدمة الاحتياط: لن تأخذ دوري يا ابن أخي وخففوا من حدة انفعالاتكم أنا في إجازة وتعلمون ليست إجازة جئت لأدفن رفاقي الأربعة فقد أخطأني الموت لينعم أخي حسن بوجودي قربه وأودعه وكنت أظنه سيودعني، مبارك له تصدر نعوشنا وخرج باكياً أيضاً

استقبل عمي وزوجته التي أظهرت قوة كبيرة وصبر يعجز عنه الرجال:

-كنت أعلم أنك يا حسن لن تبقى بعيداً عن وردة طويلاً فقد كنتما صديقين، كأموال الحرام أولادي فقدتهم باكراً ودون أن أتلذذ بالحياة معهما رحلا بعمر صغير، باكراً

يرحل الطاهرون... مازال التراب رطباً على قبر حسن عندما حاضر فينا سالم كعادته: قلنا لكم الجيش يحترق اهربوا ما سمع أحد كلامي. إذاً لتكونوا وأولادكم حطباً للحرب...

وأنت يا جابر لماذا لا تعمل وطني وأرسل حافظ للحرب.

نحن الأغنياء الوحيدين الذين بقوا على الجبهات في الحرب

-قلت له: أنت الوحيد الذي مصَّ من دماء هذا البلد حد الارتواء وتقول اهربوا!!

- قال لي ساخراً: لا ترغمني على الضحك في حضرة الموت وحياتك برلين أقرب من الشام عند كل عاقل، وفي يوم ستكون القبور أوسع من البيوت، لأنها ستكون قبور جماعية لن يجد الناس من يدفنهم ويصلي عليهم، وقل ابن عمي نصحني، أرسل صهرك الثاني وأولاد أختك ومن بقي سالماً، أبواب الهجرة مفتوحة الآن ولن تبقى الأمور بهذه السهولة...

-لا فائدة من المال إن ضاع الولد والبلد ولم أستمع لما تابع قوله فصوته يزعجني...

عاد أسامة مع أمه التي تشبثت به فقال له سالم بتجهم: وأنت لا تتغابى وتعود إلى الحرب أمامك لبنان قريبة اهرب مشياً...

- ما ذهبت لأهرب والأعمار بيد الله

-صحيح أن تفقد البصر بقذيفة أو الشلل الدائم أو بتر طرف ليست قدراً بل هي مخاطر تصيبك فقط الحرب بها.

- عمي لا تجبرني على إيذائك بالكلام إذا لم يكن عندك شيئاً تفعله فأتمنى أن تصمت وتتركنا بسلام.

-أي سلام والله تستطيع أن ترى أذنك بدون مرآة ولا يمكن الوصول إلى السلام الذي يوهمونكم به.

- قال أسامة: موجهاً كلامه لأمه قلت لك لا أريد الجلوس معهم... احتراماً لعمي استقبلوا المعزين ولا داعي لهذه النقاشات الغبية...

****

(١١)

بعد صيفين حارقين أو أكثر مر في ذهني كلام سالم لماذا نصحني سالم وما انتصحت؟ ولا أعلم غايته بالتأكيد ليس حباً لكنني كنت أمر بظروف أندم فيها على إبقائهم وصار هاجس الجميع السفر وقول شائع: "إذا بتحب أولادك بيع حالك وسفرهم ابحث عن وجهة واترك هذا البلد المحترق، يقسمونه بدهاء وليس لنا نحن فيه مكان ولن يكون العيش سهلاً على كل حال" وصار حسن مجرد ذكرى ودعناه بكثير من وجع بكثير من حنق على هذه الدنيا الظالمة التي جعلت أولاد بلدي يقتلون بعضهم دون وجود قضية عداء ما يقلقني أكثر أولاد أختي ليس لتواجدهم في دمشق في منطقة خطرة وفيها مواجهات مباشرة.

وعاد القلق على أمور أخرى بعودة الشتاء كمشاكل التدفئة وقلة الوقود وانقطاع الكهرباء والأنفاس. عشنا عدداً من السنين ننعم بالاستقرار ولكن بقدوم الحرب نسينا حتى ما كنا عليه وتذكرنا أن علينا الوقوف ساعات لتأمين رغيف الخبز وأسطوانة الغاز لا أصدق كيف وقعنا

من فوق إلى درك الجاهلية لجأ إلى مدارس المحافظة في الحرب أعداد مضاعفة من الطلاب الوافدين من كافة المدن السورية تاركين بيوتهم وقوداً للحرب.

نجوا بأبدانهم بصعوبةٍ وجميعنا يتمنى ويعمل ما بوسعه ليكون وأحبته بمعزلٍ عن هذه الحرب ولو تفاخرنا وباركنا قلة حيلة وعجز وتصبر عند عودة الأبناء شهداءً.

عدت إلى البيت منهكاً حزيناً، ففي كل يوم نذهب إلى المقبرة نرمي فيها شاباً أو اثنين ونعود إلى المطبخ جائعين وتستمر بنا الحياة وحتى الحنين هجرنا لم نعد نشتاق للغائبين ولو اشتقنا يكون الشعور ناقصاً لا نجرؤ على النظر في عيون بعضنا البعض نخاف على رهبتنا أن تضيع بانهمار الدموع المكبوتة من سنين.

****

(١٢)

ماتت أمي في يومٍ ماطرٍ وترحم عليها القريب والبعيد لسطوع الشمس في كانون أثناء دفنها لكن دمعة واحدة لم أرها تسقط عليها، الجميع مقتنع أن موتها شيء طبيعي، أم جابر أكلت عمرها والله يرحمها وجدت من يدفنها، فكثير من شهداء مفقودين في أرض المعارك ولم يجدوا من يترحم عليهم. وفتحت عزاء يليق بها لسبعة أيام وفي يومٍ بعد صلاة العشاء كنت منهكاً وراقداً في الفراش عندما طرق الباب، مَنْ يطرق الباب في هذه الساعة تقول زوجتي قبل أن تفتح الباب:

أهلاً وسهلاً يا أ م عبدو تفضلي.

-الله يسلمك خفت أن أذهب يوم العزاء وأتسبب لك بالإحراج أمام ابنتك وأهلك،

-لا عليك الله يحفظ أولادك أهلاً وسهلاً؟

-لا تعلمين، من قلبي أدعوا على المسلحين الذين يخربون علينا كل شيء ومن بينهم ابني وزوجي الله يهديهما.

أم عبدو جارتنا من أرياف حلب أخبرت زوجتي أنها جاءت إلى هنا هرباً من بطش داعش وفتاويهم وقد

تزوجت ابنتها الكبرى رغماً عنها من رجل شيشاني هو قائد في تنظيم في داعش في المنطقة الشرقية إلا أن بنيتها هبة وصِبا أنهتا تعليمهما الجامعي وقررتا اللجوء إلى الحكومة وتم نقل وظائفهن حيث يعم الأمن والاستقرار في مدينتكم.

- قالت زوجتي بمودةٍ: مدينتنا مدينتكم أهلاً وسهلاً

-ابني عبدو بقي مع والده وصهره في فصائل المعارضة للأسف يا أختي والله إخوتي سبعة شبابٍ وأولادهم جميعهم تشردوا كسرب نحلٍ لم يجد خليته بناءً على وصية أبي عندما كان على فراش الموت في بداية الحرب ربما في الشهور الأولى حيث جمعنا بصعوبةٍ وقال: ما يحدث خراب ومن يحارب دولته مخطئٌ من يحملون هذا الولاء له ليسوا أفضل حالاً من أحد، كلهم فقراء وكلهم يعيشون ظروف الفساد والمحسوبيات لقلة صدقوني لا يتجاوزوا أيام العام وعشت كشرطي لخمسين عاماً وأعلم مالا تعلمون، أما أنتم فوصيتي لكم ألّا تختاروا يوماً الأسوأ ولو بقيتم شرفاء بلا مأوى خير من الموت بذلّ، والله ومات بعد ثلاثة أيام وتلبية لوصيته، وإيماناً من إخوتي بصوابها فقد تشردنا كل حسب ظروفه، والآن كل إخوتي خارج البلاد

تابعت بعد أن أحضرت لها زوجتي القهوة: ولا أخفي عنك صهري زوج أختي وبعض الأقارب بصراحة انضموا للمعارضة المسلحة تحت قوة السلاح. والبعض مؤمن حقاً أنه جهاد.

يبدو كلامي كلمة من الشرق وأخرى من الغرب لكنني أفخر بابني باسل الذي تخرج من جامعة دمشق كلية العلوم وقد طلب لخدمة العلم ولبى النداء رغم معارضة أبيه وأخيه وهو يخدم اليوم في محافظة حماة مع قوات الجيش ربما يتواجه مع والده وأخيه والله أعلم

قالت زوجتي بخبثٍ: صحيح بناتك موظفات، لكن كل شيء ارتفع سعره أضعاف كيف تؤمنين بدل إيجار البيت المرتفع وثمن الدخان فأنت مدخنة ومريضة وثمن الدواء وحده مصيبة ارتفعت أسعار الدواء كثيراً وإذا لم يمت الفقير بالحرب يموت من نقص الدواء والغذاء ومع ذلك أنت يا أم عبدو لا يبدو عليك سوء الحال والحمد لله.

- بطيبةٍ ردت: أخفي عنكِ... لا أستطيع أن أخفي عن الله ابني عبدو يرسل لنا حوالات مالية ويقول لي أعطي أخي لا يجوز أن نقتله جائعاً مثل رفاقه.

- وهل يزورك أيضاً!!!! وهل هو منتمي إلى جبهة النصرة تمتمت زوجتي برهبة؟

- دخيلك يا أم حافظ ما هذا الكلام لا أبداً، لا يزورني لكنني أتمنى أن يهديه الله والابن يبقى ابن... أخبرني الشقي بخبث مشغليه: أكثر ما يساعد في الانتصار على الجيش الوطني نقص العناية بطعام الجنود، وقلة استراحاتهم قال لي ساخراً: يموتون من الجوع، ويأتي سلاح الأمريكي رحمة بأرواحهم، يا أمي اقنعي أخي باسل أن ينسحب من الجيش وليذهب إلى تركيا، وأنا أجهز له عملاً وإقامةً طالما لا يستجيب للفتاوى الشرعية ابنك الكافر...

تابعت بصوتٍ مرتجفٍ؟ اقتنعت بسفره، ماذا تريد الأم من الدنيا غير سلامة أولادها وعندما أخبرت باسل قال لي: إذا أعدت هذا الكلام لن تري وجهي...

-جالساً في غرفة قريبة أسمع صوتها القوي.

-الكلام في سرك ابنتي ستتزوج هنا، من عندكم وأعلم ليس الوقت المناسب لفتح مثل هذه المواضيع لكنني أردت أن أستشيرك كل الحي يذكرك بالخير... أنؤجل الموضوع؟

- تفضلي القهوة... من أية عائلة؟

-والله يا أم حافظ من عائلة زوجك: هو جميل أخ الأستاذ سالم. أنت تعرفين أن الأستاذ سالم موظف في لجان متابعة المعونات، وتوزيع الغاز وجميل منذ فترة يراسل صبا، وطلب يدها مني، لكنني لم أعطِه الجواب حتى اليوم

خرجت مودعة زوجتي بالحفاوة لأن زوجتي قالت:

-لن يجد جميل أفضل من ابنتك زوجة، وأغلقت بعد أكثر من ربع ساعة وداع على الباب

-انتفضت ونهضت غاضباً من زوجتي: ولماذا لا تزوجي أختها هبة لابنِك حتى تكتمل الطبخة! لم أكن قد اختبرت نفسي كوني طائفي أو لا، لطالما كان أصدقائي مغايرين إلا أنني تأكدت الآن أننا مسكونين بها تعشعش في داخلنا تختبئ في زوايا عقدنا، وتظهر فينا كغرابٍ يدعو نفسه لفريسة الذئب ليظهر شريكاً أبدياً وصاحب الحق... تمزقنا ليبتعد كل جزء ويلتحم مشوهاً بالآخر لا ندرك ذلك إلا ونحن نلبي الدعوة لوليمة مشتركة، فكل سيبسمل بطريقته، وكل سيقسم الرغيف على طريقة سلفه، وحده الوضوء متشابه، كما جاء في القرآن الكريم، ولا يجوز أبداً أن تظهر أي اختلاف لأن صاحبك سيكفرك بلا شك!!

تمتمت زوجتي بغضبٍ: ستنتظرك، هبة الحلبية تناسبك، مدرسة مثلك... وكان ذلك كأنها رؤيا.

****

(١٣)

تعرف جميل على صبا من خلال نخوته ومساعدتها عدة مرات في حمل كرتونة الإعانة من الشارع إلى شقتها، وكانت النظرات بينهما كفيلة بحياكة فستان عرس، وربما حاكت لآخرين مولوداً ليسمى بعد ذلك ابن الحرب.

وكانت كرتونة الإعانة ثقيلة جداً حيث تحتوي على الذلِّ بالإضافة إلى: سبع عبوات من الزيت النباتي التركي، وأحياناً عبوة زيت زيتون إسباني، ومغلف زبدة فرنسية، وعدس وبرغل وأرز تسولتهم الأمم المتحدة باسم الشعب السوري، ولكن للحقيقة كانت تقتصر في طرطوس على المهجرين فقط.

وكانت صبا جميلة، وغريبة والغريب محبوب من قبلنا، أسرت قلب جميل الذي لم يخفق قلبه بالعشق يوماً ولم يشبعه حضن، وهو الذي خرج من رحم أم ميتة بعد حادث سير مروع بالمحبة التقيا وعلى الزواج الشرعي اتفقا، وكان لهما ما أرادا، لأنهما تزوجا دون موافقة أحد، وأيضاً بغياب الجميع، سمعنا كما صوت الرصاص البعيد

بخبر زواج جميل من ابنة أم عبدو الحلبية، وبكتابٍ في المحكمة ومهرٍ كبيرٍ...
وضجت مجالسنا بوليمة نميمة عن الأصول والتربية، وعن غضب أهالي الشهداء من الدلال المفرط بأهالي المسلحين، والزواج من بناتهم والمطلقات من نسائهم.

****

(١٤)

أنجب جميل وصبا، وقبل أن تظهر أسنان الصبي ابن الأزمة السورية مصطفى على اسم جديه الحلبي والطرطوسي، اتصل بي عمي عاصي حوالي الثالثة ليلا وأخبرني أن مجموعة من الشرطة يحيطون ببيت جميل.

-أرجوك تعالَ.

ذهبت بسيارتي مسرعاً علني أتمكن من فعل شيء فلا بد قبل أن يقبضوا عليه ستكون ردة فعله كارثية... إلا أنني كنت مخطئاً هذه المرة فجميل الهارب من الجيش كان هادئاً كفأرٍ في زاوية... والجميع في الحرب يراوده سوء النية حتى مع نفسه، ظننت بأن الزوجة تخبئ مسلحاً أو سلاحاً كنت قد نسيت قصة الخدمة العسكرية الإلزامية...

وصلت باب البناية بعد تفتيش وأسئلة واستنكار بقدومي وأنّني أعطل عمل الجهات الأمنية أخبرتهم أنه ابن عمي وأن أختي زوجة أخيه الشهيد حسن، وتسكن مع عمها بعد أن فقدت بيتها، حاولت استعطافهم لكنهم لم يسمعوا حرف مما قلت...

استقتلت لأجعلهم يتخلوا عن فكرة القبض عليه، ردوا عليَّ: أوَتظنُ لا يوجد شهداء إلا في عائلتك؟ لا أعرف! وأعرف شهداء المحافظة بالاسم لكن أتساءل لماذا كل هذه القسوة؟

ادخل بسرعة قالت لميس وكانت خلفها رغد ترتجف..

أمسكوا جميل كجرذ مقرف وقفت على النافذة أراقب كل شيء.

قلت لعمي: لا يحترمون تضحياتنا تعاملوا معه وكأنه مسلح يهاجم الوطن بغباء!!!! أنت تعرف يا عمي لا أعرفه حق المعرفة ولا يوم جلست معه لكنني أشعر بالإهانة.

-أخبرتهم أنه عم لشهيد وأخ لشهيد وابنه صغير كل فترة يسلم المسلحين أنفسهم ليستريحوا قليلاً من القتال يكرمونهم ويعطونهم في بعض الحالات بيوتاً ويؤمنون عليهم من البرد والجوع، وكما حصل في إحدى المناطق في ريف اللاذقية، وزعوا عليهم مبالغ مالية كبيرة لإعادة تأهيل منازلهم التي هدموها بأسلحتهم... أما جميل لا يحب الموت ومتزوج و لم يشأ أن يذهب إلى الحرب وهو خطأ على كل جال ولكنه كان يدفع لأشخاص معينين مبلغاً كبيراً من مال كي يتناسونه، ولأن تغييراً ما حصل تغير

أسلوبهم أو أنهم اختلفوا في توزيع الغنائم وجرى تغيير مفاجئ جعل الجدد يتذكروا ابن الحلواني الشهير كما كان شائعاً تعريف كل أبناء العائلة، و لم يتسنَ له الوقت ليدفع ولهذا أمسكوا به، المهم أن هذه الدورية المدججة رمت جميل كخروف في مؤخرة سيارة مكشوفة وعلى أرضيتها المتسخة ببيجامته الفخمة خرجت زوجته من الباب تحمل ابنها وبجانبها أختها هبة تحاول أخذ الصغير من بين يدي أمه المرتجفة لأول مرة أراهما عن كثبٍ كانت صبا بوجهها البريء وحجابها الأنيق تبكي بهدوءٍ، تمتمت بلكنة غريبة زوجي لم يؤذِ في يوم أحداً إلا نفسه.. اعتذرت بأدب وأغلقت الباب. إلا أن رغد ولميس دخلتا لمواساتها.

-قلت لعمي سأذهب إلى بعض معارف ربما يساعدوننا في حل هذه المشكلة. من سيعتني بهؤلاء، أقصد زوجته وابنهما وأختها؟ سأفعل كل ما بوسعي احتراماً لحسن.

بعد الظهر وقبل وصول الأخبار السيئة بوفاة غانم وبعد أن دفعت حوالي الـ٢٠٠ألف ل.س، كان جميل في قلب بيته يخبر زوجته أنه اكتشف ابن عم لم يعترف به طوال حياته. واتصل بزوجتي وشكرها على شيء لا تعرفه.

النار

اشتعلت نيران في وجداننا وانطفأت الأنوار من رؤانا، وجفت حرارة العلاقات بحروب أشعلت قلوبنا، وبحاجات سطحية أحرقت وقتنا، وبفقد أوقد جمر جهنم قبل موعدها في أحلامنا

(١٥)

شاع على مواقع التواصل أن اتفاقاً جاهزاً بين روسيا وأمريكا، وتركيا، وإيران سيوقع في هذه الأيام في مؤتمر جديد حول سورية وقد تكررت هذه اللقاءات مرات ولم تكن المؤتمرات المنعقدة في جنيف وسوتشي واجتماعات الجمعية العامة، ومجلس الأمن إلا ذر للرماد في العيون وكانت تشبه تماماً لعبة كلب الصيد يركض ويركض ويقف حيث يريد سيده. يقتنص فرصة ليلهو يسبقه الصياد ويعود ليجري خلفه وهكذا. وكلكم تعرفون لعبة القط والفأر يركض ليصل إليه ثم يعطيه مجالاً ليركض من جديد.

وهكذا كان يحصل قبل وبعد كل مؤتمر ننصت باهتمام ونقول حتماً سيوقفون هذه الحرب المستمرة كسيلان النيل والفرات وكلما قلنا اليوم تمتد على بساط السياسة و بحرائق أقوى لنضيع كشعب بين الجبهات وإعلامنا الوطني يقول لنا فلول الإرهابيين تنهار أمام وقع خطوات جنودنا البواسل، ومحطات العالم التي تمول بلدانها الفصائل المسلحة تشي باقتطاع أجزاء جديدة من

الأراضي السورية فلم نعد قادرين على فهم اللعبة التي كلفتنا سنوات من أعمارنا وخربت القادم من مستقبل أحفادنا.

وقتلت وأحرقت في الماضي من أبناء وثروات وقيم

هذا وقد انتشت رغبة اسرائيل في تحطيم كرامتنا كنت جبلاً في صد المصائب إلا أنني تحطمت كزجاجة وفقدت شكلي المنتصب وقوتي في مصيبة وقعت على رأسي يوم جاءني خبر مؤكد باستشهاد غانم وذلك أثناء ذهابه إلى دمشق لقضاء بعض الأعمال وأثناء مروره من نقطة اشتباك أصابته رصاصة قناص في قلبه الكبير. لم يكن غانم فقط ابن عمي وصهري فقد كان صديقي ومن رباني على العلم والقراءة والفهم.

ماتت روحي عندما قتل غانم ولجأت كعادتي إلى النوم بعد إتمام وداعه على أكمل وجه، أقسمت أنّ لميس لن تعيش طويلاً بعده...

وتضاعفت المصائب وبدأ الزمن يأكل أعزتي واحداً وراء الآخر حتى ظننت أن الله يصنع لي جهنم خاصة بي على الأرض لكن نفسي قست وتعلمت من هذه المصائب أن الفناء كالبقاء

–سمعت أثناء نومي بما يشبه الكابوس صراخاً وبكاءً نهضت بتثاقلٍ وسألت دون مجيب ماذا جرى؟

علمت بعد ساعة أن الإرهابيين دخلوا مدينة عدرا وقتلوا وأحرقوا... وماذا عن ريم وولديها كان سؤال يردده الجميع

قلت مرتجفاً والسعلة لا تفارقني لا تخافوا سيكونون بخير أكدت لي البارحة في آخر اتصال لي معها أن الجيش حاضر وكل شيء على أحسن ما يكون

- قالت زوجتي بفزعٍ شديدٍ: تكلمت ولا من مجيب جميع هواتفهم مغلقة وأنت تعرف ابنها أدهم لا يغلق أبداً هاتفه وهو يدرس كخالته الطب ومولع بالشعر يكتب طوال الوقت أرى صفحته متصلاً دائماً

صرخت زوجتي التي أصبحت شخصاً آخر: أحدثك أم أحدث نفسي رد يا جابر عليّ

- بصوتٍ مخنوقٍ قلت: أسمعك مثلك تماماً أخذك الهاتف من واجباتك، ومن هدوءك!!!

- بلا مبالاة عادت إلى هاتفها وقالت من رؤوس شفتيها الحمراوين: لا تنشغل بي أختيك بحاجة لك الآن، أنتم الرجال غريبون

- أسرعت إلى الهاتف ولمرات عديدة ولساعات يعود اتصالي: هذا الرقم لا يجيب.

لم أنم تلك الليلة ومؤكد أنَّ لا أحد عنده قريب في مدينة عدرا العمالية من كل سورية نام هذه الليلة زوجة جميل وأختها هبة جاءتا مع رغد إلا أن غياب أمهما كان ملفتاً وقد بادرتا بالاعتذار عنها: ارتفاع أجرة السكن وانقطاع حوالات عبدو في الفترة الأخيرة جعلها تسافر كثيراً إلى حلب ومنذ مدة انقطعت أخبارها عنا،

-قالت هبة بخوفٍ شديدٍ: ربما التحقت بأبي في الرقة أو حماة

-اللّٰهُمَّ اجعله خير

-الله يجعله خير

-قالت جارتنا وكانت قد جاءت للاطمئنان على ريم: من أين الخير أكيد التحقت مع والدكما في صفوف داعش وهم بلا أخلاق يهدمون البلد

-قلت بحزم لها: لا ذنب لهما أرجوا التزام الصمت بهذا الكلام، وليس وقته حملت صبا الحلبية ابنها وخرجت، نظرنا إلى الجارة بعتبٍ أنا وزوجتي وعدنا للحديث عن

منطقة عدرا. قالت أريج أين المدافعين؟ قالوا لهم سنخرج!

ريم: قلت لسامر انقل جامعتك إلى هنا لم يسمع كلامي قال: المؤمن لا يحرق ولا يغرق...

- بدأت لميس تهذي وترتجف وتردد يا عيني أولاد أختي أين أنتما الآن. كانت تحدث نفسها

بدت زوجتي عديمة الفائدة ومتذمرة وتريد أن تترك كل هذا الجو وتلجأ إلى هاتفها الذي تحول إلى مسكنٍ تعيش فيه سعادتها...

****

(١٦)

أظن الرجل يتحدث عن كل شيء أمام العامة إلا عن زوجته كنت أحب مناداتها باسم ابننا حافظ كيلا أشعر بتأنيب الضمير تجاهها فقد دخلت في بداية تعليمي شعبة للصف العاشر وبعد حصتين صارت هذه الشعبة حديقتي والمكان الذي أرتاح فيه، أتجول في عينيها الخضراوين كأنني أتمشى في حقول قمح نبتت توا أنعشت قلبي الميت وحفظها وعشقها للتاريخ نقل عقلي إلى ذاكرتها فقرأت فيها محبتها لي ولدروسي وما كانت إلا طفلة لا تتقن الاختيار وعلمت أنها ندمت لأنها يوماً لم تشعر باللهفة عليّ ولا الرغبة بالاقتراب مني بعد إنجابها لحافظ.

فقد كانت زوجتي وحيدة لا تعرف أحداً سوانا وكانت تحب أن تتركني وتلعب أو تلهو مع البنات قبل انتشار مواقع التواصل، تشغل نفسها برسم بعض اللوحات والعناية بي وبالأولاد وبقدر ما كانت أم مضحية وحنونة بقدر ما كانت زوجة فاشلة، فقد كانت جثة هامدة لا توافق ولا تمانع في علاقتي معها، كانت غريبة جداً تفعل كل شيء لسنوات لي وللأولاد ولا تفكر بنفسها يلازمني شعور

برغبة كبيرة بضربها بتكسير كبريائها، لكنني لم أتجرأ في يوم وتمنيت أن تصبح عجوزاً قبلي، وللصراحة لم تكن تعطيني المجال دائماً جاهزة لكن كالروبوت بدون انفعال... وبعد أن تعلمت استخدام الهاتف اللوحي بدأتُ أرى على وجهها ابتساماتٍ وانفعالاتٍ؛ راقبت مواقع تواصلها كانت كلها للرسم، وأنشأت صداقات مع النحاتين والرسامين من كل المدن العربية، وعلى الرغم من انشغالي بمراقبتها إلا أنني لم ألاحظ أي شيء مريب، ولا أية رسالة، كانت تحظر الكثيرين بعد أن تمسح رسائلهم
لكنني كنت أتمنى أن يحل الظلام ولا أراها منشغلة بشيء سوانا. لم أكن أعرف أنني أناني لكنني حقاً كنت خائفاً مما حصل وخوفي من أن تخرج شرنقتي المحبوسة من بين خيوط الحرير التي حكتها حولها أصبح فيما بعد أمراً واقعاً وتحولت إلى فراشة ملونة طارت بعيداً جداً... لوحاتها الغامضة كانت تثير جنوني وغضبي وبدائية الرجل الشرقي الذي لا يتخيل زوجته عطر يستنشقه العامة، هي ملكية حصرية لمن صار في العرف ولي أمرها هي من ضمن الأراضي والعقارات التي ورثتها وصعب التنازل

عنها أو تركها مشاعاً للعامة... هكذا كنت أفكر ولهذا كنت متوتراً وأنانياً...

قلما تحدثت معها بموضوع ولا أتذكر أنني قبلتها أو انتبهت لثيابها، أو للون شعرها ولكنني كنت أمارس رغباتي معها غريزياً.

سمعتها مصادفةً تحدث صديقتها قائله: وهل تظنين أنني أفضل حالاً منك؟ أتمنى لو يتركني ويتزوج بشرط لا يقترب من غرفتي ينقصني الاهتمام الحب وليس مثلك المال خذي ثروتي وكل ذهبي واجعلي قلبي يخفق كما يخفق عندما أشاهد عشاقاً في فلمٍ أو حتى يبدي أحدهم بالإعجاب بي. زوجي لا يكترث بمشاعري، ولا يسأل عن مشاعري ماذا تظنينني فاعلة؟

ولم أتحمل سماع المزيد ودخلت لأجهز لها قائمة طلبات.... عملت كل شيء لأمنعها من متابعة الرسم ولكن عبثاً كأنني عجزت امتلأت نفسها بالقهر والفقد على الشهداء كانت تتأثر لسماع خبر استشهاد شاب حتى لو كانت لا تعرفه وزوجتي المصون تصاب بالإغماء و تقضي ليلها في المشفى إذا كان من معارفنا ولم أقدر اليوم على تفسير إهمالها وتشاغلها عن كارثة مدينة عدرا... ذاع

صيتها كرسامة، وشاركت في رسم اللوحات المنتشرة في الطرقات ونشرت الكثير من اللوحات على مواقع التواصل وصار لها جمهورها الخاص بل دعيت إلى معارض مشتركة ونالت شهادات عن لوحاتها التي شاركت بها في معارض خارجية كمعرض أقيم في لبنان، وآخر في مصر وكان الأولاد يساعدونها ويفخرون بها ويشجعونها ولكنني كنت كالبركان أغلي عندما تخرج برفقتهم، واللوحات إلى تلك المعارض اهتمامات الناس بها كانت تجلدني لطالما عشت السعادة والنشوة بتفرد اهتمامها بي خلال سنوات انطوائها.

****

(١٧)

تابعنا بخوفٍ أخباراً تأتي من عدرا العمالية حيث كان جزءٌ من أرواحنا هناك، انتشر الخبر كالفضيحة ففي كل مكان حتى في الحمامات ووسائل النقل في غرف النوم وفي أكثر اللحظات حميمية كانت تظهر صور الإجرام الذي صوره الإعلام ونشطت في عدرا ولا شيء بريء فمحطات التلفزة التي تدعم التنظيمات الإرهابية أهملت هذه الأخبار، بل تجاهلتها بوقاحةٍ هم الذين كانوا يتصيدون كل خبر يدين الدولة لم يروا صور مجزرة ستصبغ وجه الإنسانية بالسواد رؤوس معلقة على أعمدة الكهرباء، نساء عاريات حتى من جلدهن على مداخل المؤسسات، و صمت دولي مؤسف على هذه الجريمة النكراء كنهم صوروا قِطاً برياً وكلباً نافقاً متهمين بموتهم ثم نشره جنود سوريون وكل ذلك لإنجاح مخططاتهم الإجرامية في تقسيم البلد ولكن كل من فيه ذرة إنسانية عليه أن يقر أن كل من دخل عدرا العمالية مرهباً أهلها ومشاركاً في قتل وسبي هو مجرمٌ عالمي، ولا يدفن على تربة سورية الطاهرة

من قلب الجمر يخرج الرغيف، وفي اليوم التالي قبل أن يقصر الخيال جاءنا خبر مفرح أن سام بخير، وفي تلك الليلة السوداء بقي مع أصدقائه في المدينة الجامعية لأنه تأخر وكان على علم بخطورة القنص فلم يذهب إلى عدرا العمالية...

وكان قد نجى بأعجوبة من الأسوأ في وقت سابق حيث دخل زميل لهم وأطلق النار بدمٍ باردٍ على رفاقه بحجة أنهم موالين للسلطة وهو مولى الشيطان وراح ضحية فعلته زينة الشباب وهدم بفعلته أحلامهم وقتل فرح أهاليهم وهرب مسرعاً وكانت تنتظره سيارة لأعداء الإنسانية أوصلته إلى الحدود الأردنية وظهرَ بعد أيام على إعلام الإجرام بطلٌ يتحدث عن جريمته وكأنه حقاً حرر ومن دعمه القدس؟

دخل الإرهابيون مدينة عدرا بعد أن قتلوا حامية المدينة جميعهم وكان الفرن في ساعات عمله الأولى أدخلوا العمال في بيت النار بوحشية وتركوهم ليتلذذوا برائحة شواءهم أقسم لكم ليس فلم رعب بل هو تماماً ما حصل، دخلوا البيوت التي قاومت حتى آخر نبض وهنا لا بد من ذكر حادثتين مهمتين ولن تموتا بعد الحرب ولا بعد حروب...

مدينة عدرا العمالية من اسمها تضم الطيف السوري بتنسيقٍ فريدٍ فمعمل الإسمنت ومحطات التحويل ومحطات المعالجة ومعامل الدواء... كلها في منطقة عدرا وجوارها دوما، حرستا، الضمير، القطيفة. ويعمل في هذه المؤسسات المهندسون القادمون من كل أنحاء سورية و لا أحد مطلقاً فيها لا يعرف صديقاً أو زميلاً أو حتى شريكاً وصهراً وقريباً من كل المحافظات هذه ميزة فقط في مدن أسسها الرئيس الراحل حافظ الأسد، و التي أنشأها بعد قيامه بالحركة التصحيحية تتميز بتنوع وتعايش دام لنصف قرن علماً أن مدناً سورية عريقة وقديمة تضم هذه التشكيلة لكن ما يميز المدن الصناعية، هو أنّهم من فئة الشباب جميعهم عمال وموظفين وهم الفئة الأكثر تعلماً وثقافة فمعظمهم من فئة المهندسين وزوجاتهم إما الطبيبة أو المعلمة والمهندسة و الصحفية.

هذه هي المدينة التي سال لعاب الإرهاب ومموليه عليها بدأ هجومهم بالحرق فقد تابعوا بتعليمات إخراجية جديدة أن يقتلوا على الهوية... وصلوا بيت أحد الضابط

وكان مع ولديه وزوجته طبيبة المساكن المعروفة بإنسانيتها وجمالها

طلبت من زوجها أن يقتلها أولاً فهي لا تتحمل مقتل ولديها أمام عينيها الحساستين، قاوم بكل الأسلحة الكثيرة التي كانت معه وقتل أعداداً كثيرة منهم لكنهم كرف جرادٍ لا ينتهي... لا يوجد قوة تردع من حقن عقله بفكرة مسيطرة وحقن جسده بحقن الكبتاغون المخدرة هكذا هم مسلحو سورية المعارضين للدولة السورية ليتهم أتقنوا فن المعارضة وذكاء المعارضين في الدول المتحضرة، فبعضهم كان من سكان هذه البيوت شرب من مائها و صافح بالسلام عليكم صاحب الفرن الذي أحرقه اليوم بدم بارد وأصبح من اليوم مدفوناً في فضاء تلك البلدة بعد أن تحول جسده إلى رمادٍ علماً أنهما يصليان في نفس الجامع ويؤمهما نفس الخطيب ويستبشرون بالجنة مع نفس الفئة قاوم هذا الخالد أعداء الإنسانية تاركاً معه رصاصاته الستة يقول مصوراً كل شيء للتوثيق عارفاً بغباءِ عدوه وتباهيه بنشر الشريط المصور...

رصاصة واحدة لن تكفي قلبي وهذه لك دون أن ينبهها كانت على الأرض جثة هامدة، قتلتها طلقة هي التي عملت وقضت جل عمرها في إنقاذ الآلاف... انحنت ابنته لتقبلها، قال: افعلي بسرعة لا وقت للبكاء وتبعت أمها إلى الجنان برصاصة خرجت من قلبه ومسدسه /شو جابرك ع المر قال: الأمر منه/ قبل أن يوجه السلاح لابنه كان الأخير قد طعن نفسه بسكين المطبخ متأوهاً أعطاه والده ترياق الراحة بثالث الرصاصات وفتح الباب ابتسم للشاب الملثم قائلاً عرفتك أنت ابن أبو محمد أحضرت لك بطاقتك من القسم منذ أسبوعين ذلك اليوم كنت قد سلمت نفسك ورميت السلاح في أول عفو. قبل أن يقتربوا ويمسك به أطلق على قلبه رصاصة واحدة بقيت بعد أن وقع الشاب متأثراً بالجراح والكلام... وقد سجل للشاب الملثم جملة واحدة يقول فيها سامحني أبي لم تكن راضياً عمّا أفعل أطلب لي المغفرة.

شعر الإرهابيون بالحقد فأسروا الجثث وفي الصباح أكملوا تسجيل ما ينتهكون من جرائم بالصوت والصورة صوروا زوجة الضابط مربوطة بسيارة مكشوفة عارية كأخلاقهم يجرونها أمام من بقي من عائلات في عرفهم

أنهم ينتمون لهم وأنها كافرة والجميع سعيد بهذه المشاهد الفظيعة وكانوا ينفذون فتاوى لا إنسانية.

في المقابل أختي وولدها كانا في شقتها يبكيان قال لها الحمد لله سامر ليس معنا. على كل حال أدهم تخلص من بلادته ولم أصدق بنبوءتي له.

قطع الإرهابيون خطوط الهاتف وكانت تغطية الجوالات ضعيفة جداً ومقطوعة معظم الأوقات والكهرباء كانت اختراع قديم نسي الناس استخداماته هناك، وقد وجهت لوزارة الكهرباء الانتقادات بسبب هذا الانقطاع الذي تسبب بمساعدة الإرهابيين على التسلل بسلام، وعلم بعد مدة أن الإرهابيين هم من قطع الكبل الرئيسي الذي يغذي المدينة بالكهرباء

تنبهت أختي من رعبها على طرق خفيف على الباب

- لا بد أحد معارفنا أمي وليس ضجة الإرهابيين.

فتحت بسرعة لم تحدثهم الجارة خرجت مسرعة تاركة لأختي عباءة مع نقاب كل ما تحتاج لتصبح امرأة منقبة لا يرى منها سوى بؤبؤ عينيها وهوية باسم امرأة من الرقة وهوية شرطي من الرقة ودفتر عائلة يجمعهما وخمسة أولاد لتقنع المسلحين أنها عائلة من مدينة الرقة وبمهمة عمل،

وعندما دخلوا كانت فعلاً تصلي برهبة كما في العادة لكنها اليوم مختبئة عن الله من الإرهابيين لا من وجهه الكريم كما تؤمن:

-إن الله يرانا كيفما نكون وأنه عز وجل يقبلنا في كل الساعات فكيف يقبل دعاء من تلد أكثر من أي أحد...

فتشوا وشاهدوا البطاقات استجوبوا أدهم تصنع أنه أصم لا أعلم كيف خطر ذلك في ذهنه لكنهم خرجوا تاركين البيت كأن زلزالاً مرَّ عليه للتو...

ولم أستغرب أن الجارة كانت من دير الزور والأوراق لأختها التي لجأت إليها باعتبار عدرا أكثر أماناً من دير الزور، لم تكن المحطات المحلية بنك معلومات كافية لإشباع فضولنا ولم تبث خبراً واحداً بمعلوماتٍ وأخبارٍ عن دخول للجيش وإن حدث وبثتها إحدى القنوات يتبعها مباشرة نفي قاطع. وكان زوج ريم قد سافر في مهمة عمل مع الشركة العالمية للدواء التي يعمل بها وباعتباره لا يملك الجنسية السورية هذه الصفة أعطته الحجة لطلب اللجوء مع ريم وولديهما إلى بلاد الله الواسعة، وأظنه استقر مؤخراً في كندا.

خر ج القتلة من عدرا خلال أيام، واعتبر ذلك نصراً للدولة السورية فهي أم الجميع جيشاً وشعباً وجغرافية وتاريخاً وثقافة وتآخياً فعمل جميع المخلصين لتحقيق ذلك ويحق لنا أن نقول: نحن سوريّون لأن الهوية انتماء وإذا هي عيش مشترك وواجبات، وحقوق.

لسان حال الجميع يردد: نسأل الله وصول الجميع بخير وأمان إلى أهله.

فعلاً / كل الأمهات تبكي ولا أمي تبكي/ مثل شعبي تعيشه مهما كنت محباً للناس\، اتجه تفكيري ومشاعري كلها إلى أختي وأنها نجت وأولادها من الكارثة بفضل من الله...

قالت لنا إحدى موظفات الإسكان القريبة جداً من عدرا المفجوعة أن المهاجمين كانوا يلقبون بعضهم بأسماء قادتهم، وقالت: نسمعهم يقولون الملا عمر التابع لطالبان وكان يتبعه مجموعة بلباس مختلف عن ذاك الذي يدعي رفاقه بالمحيسنيين.

وهؤلاء بالبغداديين... والجولانيين.. كلهم تنظيمات منظمة مدججة بكل أنواع السلاح... ويترأسهم قائد... كنا نتشاغل بالأحاديث عنهم وعن غيرهم ليغيب عنا التفكير بوصول الناجين بخير.

(١٨)

كنت جبلاً في صد المصائب إلا أنني صرت رماداً في مهب الريح يوم جاءني خبر مؤكد بلحاق غانم بحسن وأبي ولأول مرة يفضلهم عليّ وذلك أثناء ذهابه إلى دمشق لقضاء بعض الأعمال وأثناء مروره من نقطة اشتباك أصابته رصاصة قناص في قلبه الكبير. لم يكن غانم فقط صهري فقد كان صديقي ومن رباني على العلم والقراءة والفهم ماتت روحي عندما قتل غانم وبدأ تقطيعي جزءاً وراء جزء وخوفاً على لميس فهي من تقاسمت معه الرئة نفسها منذ الطفولة...

لم نكن ننام يوماً واحداً على هم بائت فقد جاءنا اليوم خبر إصابة ابن أختي أسامة، إصابة بالغة وهو في المشفى العسكري لم يخبره أحد بوفاة والده، على كل حال لم يكن وعيه كاملاً ليستوعب ذلك.

كان الناس يبدون كرهاً شديداً للأخبار لكن أحداً لا ينام قبل أن يتصفح ما آلت إليه الأمور...

يراقب الناس جبهة حلب المشتعلة والجيش فعال فيها بشكل جدي وتحريرها بات مؤكدا

-سألني جاري: هل يعني هذا أن العالم مشغول بحلب والصفقات السياسية تطبخ على نيران ترامب وبوتين وفرنسا وبريطانيا لسنوات قادمة؟

معظم النقاشات كانت تحدث في مجالس عزاء الشهداء بشكل يومي ومتواصل...

-الوضع الإنساني بحق صعب.

- رد أحدهم بسخرية ووجع: وضعنا الإنساني على أفضل حال لم يبقَ عندنا أبناء ولا أفضل شيء وجود فيض من نساء أقله يتهمن بقلة العفاف ولو تزوج كل واحد منا أربعة منهن لكان عنده مجال مفتوح لعلاقة عابرة وضحك ضحكة قوية لم يشاركه بها أحد.

- الإنسان إنسان أينما حل والله لا يرضى بالظلم. قال شاب أربعيني بعين واحدة، فقدها خلال السنوات الأخيرة في معركة بين المهربين حيث كان يعمل: والله يا أخي أنا لست المسيح لأدير خدي لمن يصفعني. يجب أن تفهم الناس أن مجلس الأمن لا يهمه الشعب السوري وما يحدث به مجرد مسرحية للتسلية.

قال هذا الكلام الأخير رجل خمسيني أكل الحزن محياه ونبرة صوته: صفقات ترامب هي بيع العربي والكردي

للشيطان لتعيش بغطرسة إسرائيل، رئيس أمريكا وطاقمه وشركائه من روكفلر وأتباعه يتابعون رسم سياسة المنطقة... وطاقم المخابرات الأمريكية السي إي أي بدأ بوضع الخطوط الأولية لتظهر مخططات أوباما في المنطق

قلت: وحياتكم كل قيادات العرب سوف تركض وراء دمشق عندما تركبهم أمريكا وتمص دمائهم فترامب يتكلم معهم بوضوح ادفعوا أو ندمركم كما نفعل مع دمشق وسيأتي دورهم.

-قال والد الشهيد الذي نجلس في وداعه: أنتم الأساتذة متشائمين وعليكم أن تقرؤوا المشهد بإيجابية ماذا نفعل نحن أهالي الشهداء فقدنا أرواحنا ولا شيء يعوض الابن صراحة سوى القبر، وما قصة صفقة القرن التي نسمعها في الأخبار؟

- صفقة القرن يعني فلسطين لإسرائيل والأردن للفلسطينيين والأردنيين يتوزعون بين لبنان وسورية والعراق مقسمتين لعدة أجزاء أجاب رجل ظننته قادم من روايات ماركيز ولم نتعرف عليه...

- لم أستطع ترك الرجل حتى ينهي قلت لو حدث كل هذا ما فائدة ما أنجب جميع العرب من رجال

- وحياتك يا أستاذ لم تنجب العرب في هذه العصور رجال

والأمر محتوم لصالح السيد الأمريكي....

صحفي قدير أظن اسمه يحيي كان صامتاً معظم الوقت يجلس في الزاوية نطق قائلاً: يا جماعة نحن العرب نتحدث عن صفقة القرن وننتظر الإعلان عنها وهي تنام قريرة العين خرجت من سرير واشنطن ونامت في مكاتب مغلقة لمنظمة التحرير في واشنطن ونقلت رغبتها في ممارسة رغباتها في مبنى السفارة الأمريكية التي استقرت في القدس، لقد منعوا وجبات الأونروا عن الفلسطينيين لإجبارهم على قبولها وقد وافق حكام الخليج على دفع ٧٠ بالمئة من تكاليف تطبيقها على الأرض و الاستيلاء على الخان الاحمر و اغتصاب أراضي الفلسطينيين ووصل المستوطنات بالقدس كل هذا ماذا نسميه صفقة القرن..

- تابعت: حياك الله ولكن ورشة البحرين أفشلها الشعب الفلسطيني وقياداته ستسجل له وستبقى وصمة عار لمن حضرها مع الصحافة الاسرائيلية.

(١٩)

كنا ننصت إليه باهتمام عندما دخل جميل باكياً وأشعل خبره رأسي ووقف الجميع كأن يوم القيام يطرق الباب استُشهِدَ أسامة ابن لميس!!

لا تكفي بحار العرب ولا دموع الحروب الماضية كلها التعبير عن الحزن. الذي يستحقه الفقد المبكر للغالي ابن الغوالي ابن لميس وغانم

-لميس لن تتحمل يا الله هي معه في المشفى في الأمس أخبرتني أنه في تحسن وأن الله سيعطيها حياته وكانت دماء والده قرباناً مقبولاً... ما تراها فاعلة مع الله وقد خذلها إلى هذا الحد وابنتها ميرا قادمة لتطمئن على أخيها ولتخفف عنه أوجاع الجراح لا لتبكيه في القبر.

أنا الذي اعتبرتها ميتة يوم لم تجد في هذه الدنيا رجلاً لتتزوجه إلا ابن سالم... لكن عاطفتي تجاهها انتعشت فربما وحدها قادرة على التخفيف عن أمها وإعطائها جرعة حياة.

-رغد: لا أصدق حسن وغانم وأسامة يا جابر كلهم تحت التراب أهي لعنة؟ لطالما تمنيته مهندسَ اتصالات أسامة

صار مجرد تراب، سينزل في سواد القبر تاركاً أختي مفجوعة وكذلك تلك المسكينة حبيبته، وعدته لميس بعرس لا مثيل له قريباً.

- لم أجد إلا الجمل الجاهزة: لا تقولي ذلك هو شهيد ترفرف روحه في السماء، استمرت لميس صامتة لا تبكي لا تتكلم لا تأكل لأيام عديدة، لم أكن رجلاً قوياً في يوم، فقد عدت مراراً من بابها دون أن ألفظ حرفاً.

لم يستمر الوضع على حاله كأننا ولدنا لنكون مكاحل للتراب وضعفاء القلوب والأرواح، بل مجرد رماد

يذره أدنى هواء: أجسادنا تحركها قلوب كورق السيجارة، ونفوسنا تهدمت من الفراق وأرواحنا تعلقت بالأحبة لتلحق بهم كالرضيع وأمه... يقتلنا الفقد والحب والحنين بالنسبة لي كنت أظن أن قلبي سيتوقف من الحزن على شباب أسامة، ولكنه قاوم حتى قرر قلب لميس التوقف و قبل انتهاء مراسم العزاء بأسامة هجر قلبها الخفقان اعتبر حركته خيانة عظمى وأصبح صوت دقاته مزعج فاستجاب لرغبتها و توقف راكضاً وراء قلبيّ ولدها وزوجها وصهرها و.... وفارقت الحياة متحاربة مع الظلم والضعف ولم

تستطع أن تكون الخنساء لتنشد شعراً ولم تكن خولة لتحمل السيف...

ركض الدم في قلبي ليخدرني، وانفجار الشرايين لم يقتلني لكنه خفف عني الحزن بسبات عميق.

*****

الهواء

عنصر الحياة، حركة وسكون يمثل كل ما يختص بالتواصل والاتصال مع الغير. الذكاء والإقناع، لا نراه لكنه يدخل ويخرج ويركض حولنا وفينا لا يترك خلية فينا إلا ويهديها سكونه، يحمل أصواتنا وعليه تنتقل نظراتنا منه يتكون الماء الذي يحيينا.

عادت إلي روحي على سرير في المستشفى حيث كنت ممدداً بارداً ينتظرون ربما توقف دخوله الصعب إلى رئتي ليحملوني ثقيلاً، إلا أنه ساعدني وتسرب في داخلي وساعدته في قرارة نفسي حين قاومت النزيف الدماغي، وأوحي له بأن يتوقف ورغم تواجد كل من بقي حيّاً من أقربائي وعلى رأسهم ابنتيّ وابني وزوجتي وبعض الجيران إلا أن صمت القبور كان مخيماً.

قلت لنفسي دون قدرتي على الكلام أنني أشبه الحياة بترابها ومائها ونارها وهوائها كنت أهذي في فكري بثورة تبدأ في داخلي وتنتهي بتحرر كل إنسان من أدنى قيد.

صحيح خانني قلبي وضخ كل دماءه حقداً في رأسي ليتركني عاجزاً ستة أشهر بين الموت والطفولة المبكرة، ليجبرني على أن أشفى خلال مرضي وعجزي أن الأبناء فعلاً زينة الدنيا وأن الزوجات كتب مغلقة لا تعرف

مكنوناتهن إلا بعد القراءة المتأنية وبعد نفض الغبار عن طبيعتهن في التنكر للمشاعر ومللهن من الابتكار، وشغفهن بالكلام المعسل الذي لا يقطف من رحيق المآسي ثق بي هن ملولاتٍ ومعظم الزوجات يحببنك فقط عندما تكون قويا وضعفك يضعف مشاعرهن لتظهر لك أصولهن، ما تحتاجه في مرضك زوجة صالحة لا زوجة عاشقة، أتقنوا اختيار زوجاتكم يا أصدقاء كنت أقولها لكل عزيز يمر لزيارتي..

يلاحقني ويعيش معي النزيف الدماغي الذي أصابني بموت لميس ومنعني من حضور العزاء بها.

بقيت يدي خجولة لا تطاوعني كثيراً ولا تنقل لي إحساساً باللذة عندما أمررها على جسد زوجتي الأخيرتين.

.....

(٢٠)

أصبتُ بنوعٍ من الجنون، حيث كنت أشتم كل شيء وأغضب حتى من صوت فيروز الذي كنت أعشق، غيرتني الأحداث محت ذاكرتي أثرت على علاقتي بالله جعلتني تعس برفقة الشيطان سأبقى أهلوسُ حتى أموت ببعض كلام لا يُكتبُ...

تذكرت عندما دخل عليّ حافظ مسرعاً وصرخ ضاحكاً: تخرجت من جامعتي كما طلبت في إدارة الأعمال وأعرف لم يكن من شيءٍ يسعد أستاذ تاريخ مثلك كنجاح أولاده لو كانت الظروف طبيعية لكن في الحرب اختلط الفرح بالحزن والضحكة بالدموع وعلبة الحلوى بفنجان القهوة المرة كما اختلط العدو بالصديق، والمتقاتلين الأخ وأخيه وابن العراق والأردني والسعودي والتونسي تركوا أمهاتهم وزوجاتهم وحياتهم وجاؤوا ليقتلوا السوري وينتهكوا عرضه وأرضه لإرضاء الملك في إطاعة أمريكا ورغبة الشباب الجاهلين في حوريات الشام، لا مستقبل لي أبي في سوريتك هذه

صعقني رشق كلامه المتواصل.

- بغضبٍ شديدٍ قلت: "سوريتي يا ابن الكلب، شو نقصت عليك وعلى أمثالك وما علاقتك أنت بكل ما تقول لا ينقصك شيء وقد آمن لي أبي وبدوري أورثك ما يضمن الثراء لأحفادك"

أبي من لا يستطع السفر يبيع نفسه ويسافر وأنا لن أبقى في هذا الجحيم.

-هذا وطن!! وطن ألم تتعلم معنى وطن

- لا يا أبي الوطن الذي تشتعل فيه النيران لا يلزمني سأهرب منه حتى تنطفئ وأعدك بالعودة عندما تختفي رائحة الدخان

لم أرد خفت على قلبي الذي عرفت قيمته.

خرج مسرعاً وملوحاً بجواز سفره عندما دخل ضيوفي وتبدأ الأحاديث عموماً عن الحرب بعد السلام عليكم مباشرة

قال أحد الضيوف:

- كان لابد من تحرير المناطق القريبة من العاصمة لتفادي دخول الظلام إلى قلب سوريا ولهذا اتجه الجيش العربي السوري إلى درعا وتحرير جنوب سورية من الإرهاب كما قلت أستاذ جابر مرة مفتاح إنهاء الحرب في

سوريا يبدأ من جنوبها، وإن نهاية الحرب لن تكون إلا عبر سيطرة الجيش السوري على هذه المدينة وريفها.
ضحكت وسألتهم ماذا تشربون، كأن أحداً لم يسمعني وقال صديقي قاسم:
-لكن إسرائيل الطفلة المدللة أو العبدة الطائعة استنفرت من خطوات تحرير درعا، وطلبت من الولايات المتحدة التدخل كذلك طلبت من الأردن حشد جيشها على الحدود لكن الملك الأردني لا يريد مشكلة مع سورية، ولم يكن ليوافق أو يرفض ولكن كان يطلب منهم أن يبقى عمله ومساندته تحت الطاولة، فقط الأقوياء يواجهون.
- ما هذا الهراء وهل الأردن يملك جيشاً ومتى كان عنده خيار ليرفض أو يقبل يطيروه بين ليلة وضحاها هي سياستهم والله أعلم ما خططهم شياطين العالم.
-الجيش السوري يتقدم بقوة ضد مراكز الإرهابيين ويقترب من محاصرة درعا لكن قوات أمريكا في الأردن تتدخل وقد طلبت اجتماع طارئ في الأردن بحضور السعودية والأردن والإمارات والجيش الأمريكي وعناصر من المعارضة وكل من حضر ورشة البحرين

بخصوص صفقة القرن هو في خندق يقاتل سورية وجيشها واتضحت الرؤى للناظرين.

قال شاب عشريني:

-إن إسرائيل وأمريكا لا تريد أن يسيطر على الجنوب لأنه بذلك يخفيها ويقطع يدها ولا يخفى أن يمين أمريكا في سورية هم الخونة ممن شكل التنظيمات التكفيرية وقسد الكردية جعلتهم يحتلون ثلث سورية ولن يتخلوا عن عظمتهم كلاب أمريكا اللعبة مستمرة ومفتاح إنهائها ليس في جيبنا كسوريين لهذا لن يبقى شاب ليتزوج من صفوف البنات الطويلة كطوابير الانتظار لاستلام أسطوانة غاز.

نفس الشاب كان يتكلم بصوتٍ مرتجفٍ وخائفٍ:

ومن هنا سنشهد معركة عنيفة في جنوب سورية وأبطالنا تقاتل بشراسة وتضرب الإرهابيين الذين بدؤوا يهربون من شارع إلى شارع في درعا كالجرذان كان صوتها رخيماً ولم أكن قد تعرفت عليها قالت: كل الأمور واردة لكن قرار حسم المعركة في جنوب سورية مهم جداً.

ولكن الحديث عن هموم الناس والغلاء أكثر أهمية فقد كسدت البضائع وتكوم المال عند قلة والباقين على أبواب التسول

صحيح تمنع الكثافة السكانية الخانقة في المدن الآمنة بعد أن هاجر إليها أبناء وزوجات سكان المدن المشتعلة ومن اختار البقاء ورفض حلول الخارج وبقي وفاءه لبلده ثابتاً رغم سوء العيش وغلاء المعيشة وقلة البيوت والسكن في المحلات لندرة الشقق وغلاء آجاراتها من متابعة الدراسة وهذه العملية التربوية التعليمية استغلت كفتاة الليل كل صاحب جاه يشتمها في الضوء ويسربل إليها في الظلام وأصبحت صفقات تغيير المناهج وطباعة الكتب كتجارة المخدرات والأسلحة والدواء وربما بخطورة أكبر على من سيأتي من أجيال، كانت مرتبكة عندما وجهت لي الكلام الحمد لله ع سلامتك أستاذ جابر.

- قلت لها: صوتك وطلتك خلقت للفرح والسعادة، بعيداً عن السياسة...

رد عليها جميل: وحياتك يا أخت زوجتي ليس فقط الكتب تُسرق، أيضاً معاملكم الحلبية وتم نقلها إلى تركيا كالدواء.

ردت: عموماً تركيا طرفٌ في إشعال النيران واستمرار الحرب ورش الوقود عليها كلما همدت.

- قال جميل أسوأ ما صار في سورية محاولة اشعال الحرب الطائفية. سألني أحد الضيوف على معرفة:

من دمر أفغانستان هو نفسه من خلق الفتنة الطائفية أستاذ جابر هو من اغتال علماء العراق، ومن خلق المجموعات والجماعات والأحزاب الدينية وداعش وجبهة النصرة والمنظمات الإرهابية بقناع ديني ولماذا القنوات التلفزيونية الكبرى داعمة لهؤلاء بشكل مخادع وباستقتال؟ لقد اختلقوا مبررات أعمالهم وسياساتهم استغلوا جهل وعمى العرب؟ من يصنع ويغذي الفتن والتعصب الطائفي؟

كان يبكي وهو يرشني بهذه الأسئلة المجتمعة أعرف أسرته ووالده كان صديقي وكان مقاتلاً حاصره الإرهاب في الفرقة ١٧ لسنة وتسعة أشهر وعاد بعدها مريضاً وضعيفاً ومع ذلك أرسل من جديد إلى دير الزور واستشهد هناك.

قلت: غير متأكد وقلق من إجاباتي: هكذا يتحكموا بنا وهكذا يسلبوننا حرياتنا ويغتصبون حقوقنا، هم نجحوا في تدمير العراق لنكون في سورية لقمة سائغة ولكنهم هدموا العراق بجنودهم ولكنهم قرروا الآن تدميرنا بأنفسنا وهم يتفرجون ويعطوا العصا لمن تقع منه كي يستمر قتالنا إلى ما شاؤوا...

أمريكا يا صديقي قصفت أسطولها البحري في عام ١٩٤١ كي تبرر الهجوم على اليابان وإلقاء القنبلتين الذريتين على مدنه الآمنة.

وفي العام ١٩٦٢ قامت أمريكا بتدريب مجموعات كوبية لتقوم هذه المجموعات بعمليات إرهابية ضدها في كوبا من أجل إعطاء الحجة لمهاجمة كوبا واحتلالها. لكن الرئيس الأمريكي المنتخب كندي اعترض على ذلك، ثم اعترض كذلك على مشروع مهاجمة فيتنام فتخلصت المخابرات الأمريكية منه واتهمت شخصاً مجنوناً باغتياله.

كذلك قامت بتدريب مجموعات سرية في أنحاء أوربا بعد الحرب العالمية الثانية من أجل إيقاف النفوذ الشيوعي وتنفيذ عمليات إرهابية اتُهِمَ فيها الجماعات الأضعف فمنحت حجة لتدخلها وأجبرت الحكومات الأوربية

الاعتماد عليها. وضمن هذا الإجرام المنظم خلال أعوام الستينات والسبعينات من القرن الماضي طبقت أمريكا خصوصاً في إيطاليا وتركيا سياسية عرفت بسياسة الاضطراب حيث خلقت التوتر والعنف من خلال العمليات السرية ودعمت أنصار أمريكا وبررت تدخل الجيوش في هذه البلدان لقمع كل مقاومة.

تكللت الشيطنة الأمريكية للسيطرة على منطقتنا في عملية تدمير برجي التجارة العالمية في مدينة نيويورك عام ٢٠٠١ وإنجاب قصة أسامة بن لادن والقاعدة بولادة طبيعية لأولاد حرام، ثم نجحوا في العراق بتأجيج الحرب الطائفية ونشر العنف، من خلال فرض سياسة إلغاء حكومة حزب البعث وتحميله كل مشاكل الدولة العراقية، لم يجتثوا فقط حزب البعث بل في طريقهم اجتثوا العراق كله لتتظاهر أمريكا بالانسحاب والإبقاء على حلفائها في العراق مع مكياج خفيف وأسماء جديدة وشعارات رنانة بالديمقراطية وهموم المواطنين ليلعبوا دوراً إيجابياً ضمن الدولة الجديدة التي حفرت أساساتها أمريكا وأمسكت مفاتيحها بل وبقاءها أو موتها، كما حصل في الأنظمة الاشتراكية السابقة حيث أُبقي على الشيوعيين بلا

شيوعية وبلا حقوق للشعب وبلا رؤية ومعرفة ودراية لما يجب عليها فعله. فحلفاء أمريكا لا يهمهم إلا استعباد الشعوب ولذلك يزيحوا من طريقهم كل من يعارض سياساتهم والله أعلم، لذلك كانت الفرصة ذهبية لتشكيل داعش بسهولة وألبسته ثوب الإسلام وأعطته أمريكا الخطط ليلعب دور الإرهابي وتضرب بذلك كل العصافير بحجرها وتشوه الجسد العربي ووجهه الإسلامي، وتوجِد له عدواً من بين أخوته في الإسلام تماماً كألعابهم الالكترونية يدمر الأبطال بعضهم حتى ينهكوا يموت الضعفاء، ويسيطر الأقوياء ليتفردوا هم به. ولست متأكداً يقال أنَّ الجزيرة السورية والمنطقة الشرقية عموماً غنية بمعدن السيلكون الذي تعتمد عليه معظم الصناعات الحديثة وهو سبب من أسباب كثيرة لاقتتال العالم للفوز بهذه المنطقة.

وأخطر ما يجرى في الحرب علينا تذكروا: أمريكا قدمت المساعدة لحلفائها الأكراد وفرضت على الإرهابيين عدم شمول المنطقة الكردية بعملياتهم التخريبية ولا بد تخطط لثمن كبير ستدفعه سورية والأكراد.

إننا أغبياء إذا استهنا بقوة أمريكا وكذلك عدم إدراكنا اعتمادها المطلق على الإعلام حيث يشكل لها قوة إضافية لا يقف في طريقها شيء.

****

(٢١)

كانت الحياة اليومية أشبه بالتنقل بين القبور فما عادت الضحكة تخرج من القلب وما عادت الزوجة تلبي ولا تشبع رغبة زوج أصبح من بقي حيّاً شرها لكل شيء ليثبت أنه باق رغم طوفان النار وأنه في سفينة الدنيا يجدف ويقاوم النيران..

-قبل أن تهاجر زوجتي تغيرت كثيراً كوجه الأرض سرقها هاتفها صارت زوجة شرعية له، طلقتني بالفعل لهذا لم أتردد وبذكاء ومع أول فرصة تخلصت منها بإعطائها الموافقة بالسفر إلى ابنتنا في أمريكا.

وبعد إصرار حافظ على السفر أيضاً اشترطت عليه الزواج أولاً وبعدها له ما تمنى وبسرعة وبدون ترتيبات كثيرة تزوج حافظ وبعد مدة في كندا أنجب لي حفيدي الثاني فقد سبقته رشا إلى هذا العطاء.

وفرحت كثيراً عندما أرسلوا لي صور المولود مع أمه وطلب مني أن أختار له اسماً

- أسميه غيث إن وافقت زوجتك.

-أنا ابنك ستوافق... غيث وحياتك لن يكون إلا كما تشاء، أعرفه أراد أن يطيب خاطري.

سبقته أخته وأنجبت رشا مولودتها مريم وبذلك استحالت عودة زوجتي التي كانت تقوم بمراسلتي من وقت لآخر.

- فاجأت الجميع بزواجي من صاحبة الصوت الرخيم التي تتقن السياسة والحب الحلبية هبة بمساعدة صهرها جميل ومباركته وأخيها باسل، الذي لم يتأخر نبأ استشهاده ولم يبقَ منه إلا هاتفه الذكي فأبقاه حيّاً بيننا حتى انتهى كل ما كتبه وما صوره من مشاهد وسلفي فقد ترك رسائلَ عدة، وصور نفسه ضاحكاً كما صور نفسه في القبر وقد حفره بسكين مطبخ في رمال شكلتها عظام من مات قبله، ترك صوراً لنفسه يقبل الأرض ويطلب منها الغفران وكانت إحدى الرسائل وجدانية تحاكي الضمائر موجهة لأختيه: تحملا كل الضغوط صحيح قد أستشهد اليوم أو غداً، الوضع سيء جداً لكن حتماً المستقبل أفضل جميعنا يعشق سورية ولكن كل واحد منا يمارس غزله حسب طريقة تفكيره منا من يغتصبها مع رفاقه ومنا من يخونها كالساقطات ومنا من يمارس ضعفه بها، ومنا من يطعنها

ويعذبها ويتلذذ بعريها.. أتمنى أن لا تبكيا سمعت أنك حامل أختي أبارك لك اعتني بالأستاذ جابر وتذكروني بضحكة...

بعد سنة تقريباً بقيت وحيداً في سريري بعد أن سافرت هبة لدفن أمها في مدفن العائلة في حلب.

- عادت أم حافظ زوجتي لحضور حفل زفاف ابنتنا الصغرى أريج وأسعدني جداً تزامن حضورها مع غياب هبة قلت في نفسي ليس كحضنك حضن سألتقي بمن قضيت معها أكثر من ربع قرن بعد وصولها بيوم واحد أجريت اتصالاتي وعلمت أنها وحدها في البيت القديم؛ أسرعت ووضعت العطر الذي كانت تفضله وتشتريه لي وقبل أن تفكر في الخروج إلى أي مكان كنت واقفاً كعزرائيل فوق رأسها جحظت عينيها كأنها رأت وحشاً.

أعادت تركيزها وتابعت التصفح في حاسبها المحمول. أهو مازال أشقر شعرها كما كان يوم رأيتها في الصف طالبة فاتنة أم هي تلونه بعد ذهابها إلى أمريكا؟ هل كانت بشرتها ناعمة دائماً؟ هل حقاً عندها هذه الشفاه المكتنزة، هذا العنق، كأنني أراها لأول مرة كل هذه الأسئلة دارت في ذهني وأنا أقف خلفها أراقب تفاصيلها في المرآة جثوت

وحاولت أن أضمها وثبت قطتي وكلبوةٍ تتجهز للافتراس فقط بنظرة وحركة جبين ورفع فم إلى الأعلى زأرت: لا تجرب الاقتراب

- أموت ولا أسمح لك بلمسي.

- قلت ملاطفاً ظننتكِ مشتاقة مثلي، على كل حال أتذكر قرأت في كتب التاريخ الكثير لكني ما قرأت عن امرأة قتلت نفسها بعد اغتصاب لكنكن تتألمن وتنكسر نفوسكن وتتمنين الموت ربما وتبكين وترفضن وتحاولن الهروب لكن معظمكن في النهاية تتأوهن من اللذة.

لم أقدر قوتها جيداً لكنها قاومت كثيراً وعملت يدي لصالحها بضعفها لكنني صممت كالفرنجة بأنني سأحتلها مهما انكسر مني ومنها ولكنها فجأة همدت وتمددت كعادتها ولملمت ما بقي من رضابي بقرفٍ ثم جمعته في مقدمة لسانها الذي طوته بقوةٍ وبمساعدة لسانها وضمت شفتيها، ولمعت عينيها لكنها لم تجرؤ على تنفيذ البصاق في وجهي ثم قالت: حقك الشرعي تأخذه وأنا أرضيك شرعاً لكنك لم تعطني يوماً حقي... لم أتراجع كانت رغبتي مجنونة حيوانية. وربما فعلاً شوقاً وفرصةً لن تتاح لي قريباً... كانت لعبتي ميتة تماماً وهي ماهرة في الموت في

مثل هذه اللحظات ومجرد أن أخذت تنهيدتي العميقة تحركت الغرفة بعد ثبات وانسلت إلى الحمام لتعقم نفسها مني وتتطهر من جريمتي.

- يحق لها أن تطلب لي الإعدام قلت في نفسي متأخراً ولكن عدت لذاك الفعل وذلك الندم عدة مرات قبل أن تعود وتسافر.

سارعت بدوري ونفضت ريش انتصاري الصعب، وقد تأخرت في الحمام فتبعتها ووجدتها تبكي بهدوء كأنها تغسل عينيها من رؤيتي وبثوب خفيف كانت قد وضعته على جسدها، ضممتها هذه المرة بحنان أبٍ وكانت برودة الطقس لاسعة، فأحضرت لها رداءً سميكاً، وعندما أردت الخروج من البيت قالت انتظرني سأرافقك...

فهمت معظم العلوم وأحفظ تاريخ الدنيا والتكوين لكنني عاجز عن فهم طينة المرأة وتشكيلها وطريقة تفكيرها وغرائبها... لم تبق لأكثر من شهرين ولم أرها بعد وداعها في المطار.

****

(٢٢)

أنجبت هبة ابناً ثانٍ لي بعد الصغيرة التي ماتت أثناء الولادة لتأخر حضور الطبيب وخروج كامل السائل الأمنيوسي الذي يتنفس عادة الجنين من خلاله مما تسبب باختناق طفلة كان فقدها بالنسبة لهبة يعادل جيشاً من الأبناء وللأمانة لا أعلم إن كان اكتئابي في تلك الفترة على الطفلة أم على أمها لأنني تابعت أيام الحمل كمسلسل انتهى بموت البطل، وربما إحساسي بالندم لعدم التصرف الجاد ونقلها من عيادة دكتور استهتر بمريضته وجنينها، دون شعور منه بالمسؤولية

ولكننا أنجبنا أحمد في بداية هذا العام...

رفضت ابنتي أريج وزوجها السفر إلى أمها وأختها في أمريكا وهذا حلم كل شاب سوري اليوم وقالا البلد لنا ولأولادنا...

أنشأت أريج مدرسة خاصة كما هو رائج، قالـت: الدولة تتنصل من واجباتها ونحن نستغل هذا التنصل لصالحنا، سيكون معنا شركاء أبي فكرة رائعة كذلك الناس فقدت الثقة بالمدارس الحكومية بعد أن باع المدرسين ضمائرهم.

- سوف تكون المدرسة حلاً لأزمتنا المالية أبي فجميع التجار والمتنفذين سوف يسجلوا أولادهم وما يسلبوه من الفقراء باليمين نأخذه منهم باليسار ونستفيد ونقدم بصدق المساعدات

- من أين جئتي بهذه الأفكار التجارية؟

- بالتأكيد ليست من التاريخ أبي

-أبي سأخبرك، أمي تعمل في مركز متابعة تابع للأمم المتحدة في نيويورك بعد أن كانت مدفونة هنا في غرفة نومكم لا تزعل أبي، وخرجت مسرعة.

لم يتسنَ لي التفكير في صحة ما قالت فقد جاءني ضيف أحبة من حمص وفتحت له أريج قبل أن تغادر وضعت أحمد في حضني، لم تكن قد عادت هبة من عملها.

كيف الأخبار إن شاء الله تنتهي الحرب هذا العام قال صديقي فايز

- هي مطر السوء ولا بد سيتوقف. "ثق إذا أمريكا لم توقفها لا عمك أبو علي بوتين ولا موت كل الأبناء رح يوقفها حتى يكبر ابنك هذا ويقاتل"، صحيح في أي جبهة سيكون؟؟

لم تكن مزحته مريحة لكن بلعتها على مضضٍ...

كانت هبة تعمل مع منظمة اليونسف وكانت تجلب بعض الأخبار وبعد تحليلها كنت أقتنع مرغماً أن الحرب مرتاحة عندنا ولن تهاجر أو تطلقنا مهما فعلنا.

-أخي أنا جئت من حمص وأحتاج بعضاً من فضلك

-الفضل لله يا رجل والله حقك عليّ من الليرة للمليون

-ابني في السجن هرب من قطعته العسكرية لأن المسؤول عنه طلب منه احضار السمك من هنا وقال له: "هو مشوار ساعة بتخطف حالك وتجلب لنا السمكات"، وتكرر ذلك عدة مرات في هذه الإجازة لم يكن معنا ثمن الخبز والتحق دون سمك وعندما تقابلا عاقبه وأرسله في مهمة وعندما رفضها أدخله السجن ومازالت الرصاصة في قدمه منذ أول إصابة.

- أين يخدم ابنك سنحل موضوعه كل شيء بالمال حله سهل

- يا رجل بعض الضباط يضحي بحياته من أجل عسكري عنده وسمعت بقصص كثيرة لكن هذا الابن الحرام طلع لابني شو اعمل فيه.

-هؤلاء أعداء البلد أكثر من إسرائيل الشر موجود والخير أيضاً من يستغل الحرب ويستغل عمله أو موقعة لمكاسبٍ

آنية هو بالمطلق غبي، الدول الغربية تفكر بمصالح أجيالها القادمة أكثر من واقعها الحالي تستبقك بالحروب تستبق بالمشاريع أما نحن لا أحد يفكر بمستقبل أحفاده وطبيعة الحياة المستقبلية

المال لا قيمة له رغم الحاجة الماسة له فالوطن أهم وأغلى ما يمكن أن يتقن الإنسان العناية به كطفل يحتاجنا ورعايته والحفاظ على وحدته واجب مقدس.

هذا الوطن بيتنا الكبير والسوريون جميعهم في يوم ما كانوا مثلي تماماً انظر كيف فعلت بنفسي كان هذا البيت يعج يوما بالحياة الحرب.. وأنا وتفكيري الأناني أفرغه من أحبتي وكل ساكنيه وهذا ما حصل في سورية كل يفكر برغباته فهدمنا حياتنا ونقاوم بصعوبة البقاء.

-ماذا تقول ألن تحل هذه الأزمة يقولون أنّهم يتحضرون لإعادة البناء.

- أنا أرى أن بناء الإنسان أهم من استيراد البيوت والسيارات هذا ليس بناء، سأحكي لك قصة طريفة لباولو كويلو مع ابنه: كان صغيراً ويمنعه من الكتابة فأمسك باولو خريطة العالم ومزقها وقال لابنه اجمع الخريطة ثم عد لم يتأخر الصغير واستغرب الكاتب مقدرته الخارقة

فقال يستحيل أن تكون قد أعدت بناء العالم بهذه السرعة.

- قال الولد في الجهة المقابلة كانت صورة إنسان سهل عليّ بناءه فبنيت العالم. نعم إذاً بنينا الإنسان يبني العالم.

****

(٢٢)

على شاطئ البحر وفي قهوة معروفة حجزت الطبقة الثانية كلها واتصلت برفاقنا وأخبرتهم بوجود الأستاذ فايز الكاتب المشهور

قال سعيد: "ليش طالعتنا هنا لا نستمتع بجنس لطيف ولا وز ولا سمك".

- لم يكتمل عقلك يا رجل

- أي عقلي أكبر من عقلك يا أستاذ أنا أكتفي بالنظر أما أنت لم تكتف بالزواج وأنجبت أيضاً.

-أنهى المزاح فايز بقوله:

إعلامنا لا يخبرنا الحقيقة لقد قضم الإرهاب ثلاثة أرباع سورية.

- يا فايز إذا ما فعل وأخبرنا بالحقيقة ما كنا لنجلس هنا الآن وبهذا الهدوء بل كنا سارعنا جميعاً بضب ثيابنا والركض حفاة صوب الحدود...

- يقال أنّ الرئيس ريغان قال: (إن فشلنا في حرب فيتنام كان بسبب فشلنا باستخدام الاعلام) لهذا فإنهم فعلوا في أمريكا دور الإعلام منذ أعوام في التأثير الحاسم على

الحكومات والتحكم بمواقف الشعوب. وقد نجحوا في المزج العلمي الفائق الدقة بين فنون الإعلام وحاسة الشم القوية للمخابرات عندما خلقوا شبكات سرية واسعة من العملاء في معظم بلدان العالم وهؤلاء العملاء من المتعلمين المرتبطين بالإعلام منهم الكتاب والممثلين والصحفيين. وخصصوا مبالغاً كبيرة لتشييد مؤسسات إعلامية مرتبطة سرياً بهم والتي يصرف عليها بنك من الدولارات، "أي شو هالكلام كل شي نفشل فيه نتهمهم بتوظيفه" هو تقنية تطورية كمواقع التواصل كل يستخدمها لتلبية حاجة أو طموح أو عمل وحتى تسلية ولا أقبل أن تكون جلسة سياسة ما فيها بنات فهمنا للأسف لكن جعنا والأكل سياسة أيضاً؟

قال أستاذ اللغة الروسية المستحدثة في مدارس المحافظة

قلت: إن أعظم الخدمات قدمتها لهم تلك الفضائيات التلفزيونية التي دعموها في منطقة الخليج والتي بحجة تفعيل الديمقراطية وحرية الرأي تمكنت من تأجيج الصراعات من خلال التركيز على العناصر المتطرفة من كل الاتجاهات وخلق الصراعات والفضائح الإعلامية والبرامج

ذات الاتجاهات المتناقضة التي كنا ننتظرها ونتفاعل معها ونكون فرق ضد بعض ولم تكن بريئة على ما أظن.

- قال فايز: تذكر كنت أقول لك مهزلة كل هذه البرامج تعمق الخلافات المبتذلة المحرضة المؤججة للتطرف والأحقاد بكل أنواعها. بفضل هذه الفضائيات تمكنوا من إقناع العالم كله بكذبة القاعدة.

تابع شاب جاء مع والده أستاذ الفلسفة وكان سنة أخيرة هندسة معلوماتية

-أنا لا أستبعد أن لهم يد خفية كفضائياتهم جعلت المقاومة قوية أيضاً لتظهر لحلفائها ضرورة قمعها كما الحوثيين والسعودية أو حتى حزب الله والسعودية.

- صرخ به والده بشدة وقال: أكيد هذه المعلومة من صديقك خالد؟

خاف الشاب ولم يتكلم فنحن كبيئتنا نرفض أن تمس مقدساتنا قلت:

-مجرد رأي يحمل الصحة كما الخطأ! وتابعت إن تهيئة وتغذية أجواء الحقد والصراع الطائفي في العراق من خلال تسليط الأضواء على الشخصيات المتطرفة من كلا الجهتين

المتصارعتين وحتى المعتدلة تدعم فكرة ابنك وتحرير الأخبار
والمشاهد المؤججة للمشاعر.
-إذا لم تغيروا الحديث سأذهب إلى مكان أجد به رزقي ردد صاحبنا.
ناديت النادل وقلت: "اطلبوا وتمنوا إذا فيه صبية حلوة لفها للأستاذ على حسابي إذا بتريد".
ضحك الجميع واستمتعنا بالسمك الطازج.
كنا في صغرنا نجتمع مع عائلتي فقط نضيع بالأسماء انظر صرنا قلة مع أن الطبيعي أن نكون تضاعفنا الحروب ظالمة ولكن اتهام بعضنا بها ظلم لا ناقة لأي عربي بهذه الحرب سوى غبائه وهذا يكفي فايز.
- أظن أن التيار المسالم في الغرب ضعيف بسبب انقيادنا نحن للأقوياء.
-قلت شيئاً جوهرياً فعلاً لو استطعنا الوصول إلى قياداته بأموال نفطنا ومقدراتنا لأحدثنا تغييراً ما هنالك حقيقة مخفية مزعجة لنا لا يدركها كثيرون وهي أن التياران الغربيان مختلفان ومتوزعان في عموم النخب السياسية والثقافية لكن المتعصبين هم الأقوى.

- المشكلة يا شباب بالفعل بأن هذا الفكر المتعصب نجح باستمرار بتشجيعه لروح وثقافة الأحقاد والإرهاب في بلداننا كافة. فكلما حاول التيار السلمي أن يطالب بالإنسانية والتعقل مع شعوبنا رفض المتعصبون بحجة الأحقاد المذهبية واستخدام التكفير فيما بينها.

مع ذلك ظهر من يتمسك بالإنسانية ويحاول الدفاع عن حججه بضرورة تحقيق السلام الذي يستحقه العالم وبتحقيقه يعم الأمن والاستقرار.

-يا أخي الإنسان غريب نصل بأحاديثنا إلى عمق التكوين وتلهينا عن المتابعة سندويشة أو رغبة لحظية، فعلاً هذا الطعام من ألذ ما أكلت منذ سنوات.

- لولا هذه سلطة الغرائز على الإنسان لغزاً الكون صدقني.

بعد مدح الطعام وجو المرح والدعوات برضا الزوجات...

عادت الحرب إلى الطاولة.

- ماهي القضية الكبرى التي يموت أبناؤنا لأجلها؟

سأل أحد ضيوفي:

- ما هو الشيء الأغلى من الوطن؟ لا لا يا أستاذ مو حلوة منك.

-أي إذا الموضوع موضوع وطن وترجعه الدماء والله مستعد أذبحهم بيدي لكن الوطن كالدين يتهم ظلماً وفهمكم كفاية...

استشهد لي مالم أستطع أن أعدد أسمائهم فكل واحد منهم مشروع إنسان عظيم انتهى في حفرة عميقة ليظهر في ذاكرتي مجرد سراب.

لقد أنتن داخلي بحكاياتهم وأعدادهم في تزايد للأسف وقد أصبح قلبي كخريطة أوطاننا من الجراح والخطوط.

-هذا الكلام قلة إيمان هي ساعتهم وكانوا ليموتوا لو كانوا في أحضان أمهاتهم.

- لو ماتوا في أحضاننا لدفناهم بشكر لقضاء الله وقدره لكنها الحرب والحرب ظالمة قاتلة علينا تجريمها.

- ضيف حضر مع ابن شهيد قديم استشهد في حرب تشرين وهو شاب عشريني يبدو مثقفاً جداً قال: يقولون الاتحاد الأوروبي سيغير اتجاهه إلى روسيا وحلفائها

لنفترض حقاً أن شعوب الشرق الأوسط حقودة ومتصارعة وعنيفة لكنها مهما بالغت فإن تاريخها يثبت بأنها أقل عنفاً وتطرفاً وحقداً من شعوب أوربا الغربية أكد التاريخ عفواً أستاذ جابر أكد أنها خلال الحربين

العالميتين قتلت حوالي ستين مليون إنسان أوربي بأيادي أوربية مع تدمير المدن الأوربية بكاملها واقتراف عمليات إبادة منظمة لملايين الأقليات وكذلك استعمرت واستعبدت عبر التاريخ الشعوب الضعيفة. لكن مع كل هذا فإن أمريكا ومن أجل ضمان سلامة مصالحها وإبقاء أوربا بجانبها عملت على مساعدتها وبنائها وتحقيق الوحدة السلمية الإنسانية بين بلدانها التي ظلت على مدى التاريخ متصارعة إلى حد الإبادة كألمانيا وفرنسا وانكلترا! إذاً لماذا لا نعمل وتعمل معنا القوى التي تميل إلى حقنا بالسلم وبجهود الجميع قد نتمكن من بناء أوطان وتحقيق الوحدة لن يكون مستحيلاً. علينا أن نتحالف إنسانيا وسلمياً مع قوى الخير.

قلت غير متأكد: أن مثل هذه الاستراتيجية قد تغير بحق وجهنا المشوه.

أم أن عهود الظلام قدر خارق ومحتوم علينا الخضوع له أم ماذا؟

بعد مداولات وجدالات طويلة وعقيمة وعميقة حيناً وسطحية من البعض يمكنني بكل ثقة وقناعة أن أخبركم أن هذه سياسة أمريكا الشيطانية ليست قدراً

محتوماً بل هي بكل بساطة لعبة خطيرة يقوم بها بشر مثلنا لهم مصالحهم وعقيدتهم ونقاط قوتهم وضعفهم مثل كل البشر. ونستطيع نحن الضحايا أن نجد الاستراتيجية المضادة التي تساعدنا على الخلاص. يمكن اختصار وتحديد هذه الاستراتيجية المقترحة على عدة أصعدة

فمثلاً على الصعيد العالمي يمكنها إقامة تحالف وحوار شعبي ونخبوي بين الشرق والغرب.

التخلص من الغباء والخنوع الذي تمارسه الحكومات والنخب

التي تنجر وراء الشيطنة الأمريكية والأوروبية التي تنادي لنا بالديمقراطية الخطوة الأولى...

-صدقوني منذ بداية الحرب على سورية وعندي ثقة أن الحرب على الجميع وقتل الإسلاميين المتشددين أهم في مخططهم من قتل أولادنا نحن العلمانيين لكنهم يوماً لم يهتموا بمن يضحوا لقد نجحوا في تأجيج الخلاف من خلال هذه الحروب التي نعيشها في الشرق والغرب وحتى الآن يخافون من أي تقارب إسلامي يهودي ومسيحي من

خلال دعم القوى الإسلامية المعادية للمسيحية وبنفس الوقت تعزيز مخاوف المسيحيين واليهود من الاسلام.
الكاتب فايز غفا مرتين قبل الثانية عشر فقد تابع دون أن يعلم عما نتحدث: أنا أثق أن حلول جميع مشاكلنا تكون بإقامة سوق ووحدة شرق أوسطية مشابهة للوحدة الأوربية التي تركت وراء ظهرها كل الأحقاد والحروب المدمرة بينها وواجهت الحقيقة إما أن تستمر بشن الحروب المدمرة أو أن تتوحد! وقد اضطرت أن تختار الحل الثاني.
- بصوت ناعس ومرتجف قال الشاب: لكنها أستاذ تتفكك الآن انظر بريطانيا خرجت من الاتحاد الأوروبي وقد أعلنت ذلك وزيرة خارجيتها رسمياً.
نحن نبدأ حيث ينهي الآخرين ونستخدم الدواء بعد أن اخترعوا الأحدث منه متأخرين عنهم قرون ونريد تحالفاً معهم محض وهم. تصبحون على خير وخرج صديقنا كأننا سبب مباشر لما يحدث أحد ضحايا سالم والذي قضى عقداً من الزمن وراء القضبان بسبب عداء بسيط معه قال:
إن الوحدة العربية قد فشلت وستفشل دائماً لأنها قائمة على أساس القومية العربية وعدم التوافق مع أهم دول

الشرق الأوسط غير العربية إيران وتركيا والجماعات الأخرى التي تعيش مع العرب كالأكراد والتركمان والسريان والأقباط. يجب أن تبنى بينهم جسور الثقة بدل من توسيع الأنهار الدماء..

لقد نجح المتعصبون في الشرق والغرب بمنع أي توحد من خلال الإبقاء على الصراع الاسرائيلي الفلسطيني، واليوم السوري السوري، واليمني اليمني، والليبي والتونسي وجعله العقبة الكبرى أمام أي سلام وتقارب. وتمكنوا من فرض العقيدتين وجعلوا غالبية النخب العربية ترفض بصورة مطلقة أي حوار وانفتاح وتقارب مع المجتمع والنخب. وناهيك أن العدو يبتغي طرد جميع الفلسطينين وبناء المستوطنات في كل مكان وإيجاد وطن بديل لأصحاب الأرض، ... صفقة القرن ستبقى على طاولة التفاوض...

-أي أي مهلك رويدك هل كل هذا حلماً رأيته للتو أستاذ فايز قال أحدهم:

- أبو شادي لم نسمع صوتك وكنت أفكر بزيارتك قبل مجيء فايز

- فمن دير الزور جئت ومن الفرات شربت وفي أسرة إسلامية متعصبة ولدت، والقرآن الكريم مثلك أبو حافظ حفظت ولجأت مجبراً إلى مدينتك أخي جابر وأقتنع منذ البداية أن الحرب قدمت لتحصد رؤوس الجميع بلا تمييز... لم تتعمقوا بمسألة العراق جارتي المذبوحة منذ ٢٠٠٣ فلابد من توضيح أثارها علينا كسوريين.

مؤكد كلنا ثقة أن حضارة العراق تؤهله ليكون مركزاً للسلام والحوار والتقارب لقد جعلوا منه قاعدة بل مركزاً للمؤامرات والحروب والأيدلوجيات التوسعية والإمبراطورية الحديثة بمكوناتها العلمية والتكنولوجية وجميع مفاتيحها في جيوب القوى الخارجية.

إن طبيعة العراق تاريخياً وجغرافياً فرضت عليه دائماً إما أن يكون محتلاً من قبل الجيران أو هو الذي يحتلهم. لهذا الحضارة العراقية انفتاحية عكس المصرية المنغلقة ثقافياً وسياسياً وسكانياً وعسكرياً.

وهذه الطبيعية الانفتاحية الخارجية هي سر العبقرية العراقية وسر الخراب أيضاً. فهي التي منحت العراق والعراقيين هذا الخصب الإبداعي والدور الحضاري الحاسم في التاريخ ولكن هي أيضاً التي جلبت على العراق

والعراقيين هذه التبعية للقوى الخارجية وسهولة التخلي عن الهوية الوطنية والانقسام والتصارع.

- والله كلامك جواهر لكن من أين سنأتي بشعوب تفهم هذا الحوار.

-صدقني الشعوب موجودة لكن القيادات مغيبة وبهم فرض علينا قوانين التعصب والانغلاق.

انضم إلينا جار عزيز وبعد أن استمع لحوارنا قال: ما سمعته منكم يجب أن يدرس في الكتب وقد يكون خريطة طريق ولكن يبدو أن حسابات البيدر مختلفة وتتكرر الاجتماعات بين واشنطن وموسكو وثناء واشنطن على اتفاق ستوشي بين أردوغان وبوتين وزيارة ديمستورا والانتخابات الأمريكية أحداث تترك أثارها على شوارعنا واقتصادنا، والوضع في روسيا مثل الوضع في كل بلدان العالم الثالث يمكن أن يتغير بين ليلة وضحاها نحن في سورية إذا ما خرجت إيران من البلد واتسعت الساحات لأمريكا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وتركيا وروسيا وإسرائيل عندها على الدنيا السلام.

-لا تخيفنا أستاذ قالها هادي بخوف.

- يا أخي أنت ابن الدير وتعلم الخفايا وكل شيء قابل للبيع والمساومة.

- معركتكم أنتم المهجرين تتصاعد بين المال والوطن فالغرب يدفع المال الكثير من أجل أن يحتفظ بمئات الآلاف من السوريين ويمنعهم من العودة إلى وطنهم وهم في صراع بين حياتهم الهانئة والهادئة وبين العودة إلى الوطن دون مال لأن أغنية سعدون الجابر يحفظها الجميع حتى ولو عاش ألف عام في ألمانيا وكندا وفرنسا: ((اللي مضيع ذهب بسوق الذهب يلقاه واللي مضيع محب يبقى سنة وينساه بس اللي مضيع وطن وين الوطن يلقاه)).

- أعرف أن سورية لو كانت سليمة ولا حرب فيها ولا مشاكل وفتحت أبواب الهجرة لكان مئات آلاف السوريين هاجروا ليتعرفوا على العالم وكلنا يعرف كان حلم السوري قبل الأزمة الهجرة ومعرفة الكون ولكن في الظروف التي تتم الآن فإن الذل والهوان يلحقان بالسوريين الذين يحصلون على المال مقابل التخلي عن الوطن وهم لا يعوا ذلك تماماً ولكن البذخ الذي تقوم به الدول الأوربية وكندا على المهجرين السوريين وعرض الجنسية عليهم وتقديم الإغراءات لهم من أجل بيعهم لوطنهم والثمن

هويتهم وجنسيتهم السورية في كل بلدان العالم يمكن لأي إنسان أن يحصل على جنسيتين إلا السوري فإنه لا يحق له الحصول على الجنسية الألمانية أو الفرنسية إلى جانب الجنسية السورية ماذا يمكن لسورية أن تفعل لاسترجاع أبنائها الذين يتم بيعهم في المزاد في أوربا ويفاوض عليهم التركي، وماكرون الفرنسي، وأنجيلا ميركل الألمانية وكأنهم سلعة.. السوريون بين ناريين الغربة والحرب ولكن أنت معارض أو مؤيد عليك أن ترفض التخلي عن وطنك فهل يتخلى التركي أو الفرنسي أو الألماني أو الكندي عن وطنه إن يهود العالم يتجمعون في فلسطيننا ونحن نتفرق إلى أصقاع الأرض يجب أن يعود المهجرين بانتمائهم ولا يبني وطننا المال الأوربي والخليجي.

-الله لا يرجعهم يا أستاذ هنن عملاء ولا يحملون في قلوبهم إلا الحقد والكراهية أكثر من إسرائيل يتمنون إبادتنا ألا تتابع صفحاتهم؟ الحجاج بن يوسف الثقفي في عقولهم يشهر سيفه.

-أرجوك لا تعمم كلنا للوطن بكل أطيافه.

طلعت الشمس إن شاء الله يطلع فجر سورية كما تستحق
إليكم القهوة نلتقي بخير أو في جنازة شهيد.. افترقنا على أمل عودة الحياة التي نستحقها من جديد...

*****

التراب

البيت والمسكن العمل والصحة منه خلقنا وإليه نعود وهو نفسه التراب الذي نراه على القشرة الخارجية من الأرض والكواكب الأخرى من رمل وحجارة وصخور نرمز له بالأصفر ونمشي عليه ونزرع ونحارب ومنه نخرج يوماً من جديد.

إعادة تشكيل التربة تحتاج من الله وقتاً إضافياً وأياماً ولياليا، سهر ليراقب خلقه وقشرته الأرضية المزروعة شباباً ودماءً، زهوراً، وقمحاً.

لم نتأخر وسجدنا له لنكون كاذبين والشيطان صادق، والتقينا معه في مأتم جماعية عاقبنا بها لعلمه واتساع معرفته و كل تفجير إرهابي أيقن أن الشيطان صدق مع الله حين قال وكيف أسجد لمن خلقته من طين، سيملأ هذا المسخ الأرض دماء... بقيت مدينتي آمنة لولا التفجير الإرهابي الذي استهدف مركز انطلاق الباصات وكان ضحيته واحد وأربعون شهيداً وشهيدة اختارهم الإرهاب لميعاده واختارهم الله لجواره شهداء حق ماتوا ظلماً وبهتاناً سوف أتذكر معكم بعضهم لكنني اليوم مشغول بنفسي فقد أرسلت لي ابنتي من كندا موافقة بلم الشمل وتقول لأتابع علاجي وأجري فحوصات عامة

لجسدي.. لكنها اشترطت أن أطلق هبة قبل السفر، فقد انتقل زوج ابنتي من أمريكا إلى كندا يقولون كندا تعدهم بالجنسية والتعامل كالمواطنين المحليين والأمر مختلف تركت بقصد الرسالة في متناول يد هبة ولم تتأخر بقراءتها أبدت حزناً ولكنها قالت من حقك البحث عن سعادتك ولن تكون لك سعادة بعيداً عن أولادك، سأبقى أم لابنك وسعادتي بك لا توصف.

لماذا مثلي يسافر رجل ستيني هل أعتبر من الأغنياء أخواتي مفجوعات بفقدان أولادهن وأبناء عمومتي بين مفقود ومخطوف وشهيد لن أسافر ولو لم يبق في البلد سواي ونار جهنم.

- أرجوك يا جابر افهمني سوف أعود إلى حلب الحلبي كالسمك بحره هواء حلب، لا ينتعش إلا به ولا أثر لعائلتي هناك وعليّ أن أعود لأسترجع أملاكنا أستكشف حيي وحارتي ولا أريد أن أقيدك يكفيني منك أحمد. جميل وصبا لن يعودا من لبنان أبداً

- لك ما تريدين اذهبي واجلبي لي من تربة حلب رشة لقلبي لكن أحمد روحي لا تتأخري.

- سأعود صدقني مجرد وقت، سأعود لتشهد تربة سورية وحدة الأبناء

- تأخرت عودة هبة لأشهر وشعرت بالتعب وخفت من قلبي الضعيف فراجعت طبيبي وصار بعد سنوات من معرفته من أعز أصدقائي الدكتور منصور وفجأة قرر الهجرة، ترجيته أن يتراجع عن فكرته: يا دكتور من أراد السفر سافر من سبع سنوات لماذا الآن.

-يا أخي قلنا تنتهي الحرب وتعود الحياة لا أمل كل شيء يصبغ بالسواد ألا تتابع قرارات الحكومة.

- نعم قرارات غير مدروسة جيداً بصراحة ويقال تصاغ بشكل جميل وتضيع البنود بين المكاتب والتعليمات التنفيذية

-أخي تأخرت بإخبارك وضعك الصحي جيد وجيد جداً وأنا سأغادر من مؤتمر بيروت الشهر القادم إلى ألمانيا فقد وصلني وزوجتي عقود عمل والمستقبل للأولاد خارج هذا العجين الفاسد صديقي صدقني لا يمكن أن أنسى وجهاً جميلاً قابلته فسارعت وسألته:

-ماذا عن أختك؟

أخته فتاة أربعينية ممتلئة الجسم مدرسة لغة انكليزية وقد عرفتها مهذبة ومتقنة لعملها وتكتب الشعر والخواطر على صفحات الإنترنت.

- ضحك وقال هل صحيح ستعود هبة؟ أم حافظ مثلي لن تعود ولم تعلمها الوطنية، كما لم تعلمها كيف تحبك

-لا أظنها ستعود ولكنها لم تطلب الطلاق لست أنا من يجبر امرأة على العيش مجبرة معه.

-أخي قالوا اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك هل تتزوج من أختي أمل؟

-يا رجل هل جننت...

- بعد منتصف أحد الليالي العاصفة بداية كانون الأول رن جرس الهاتف وكانت أمل.

- أستاذ جابر أنا آسفة أزعجك في هذا الوقت لكنني كنت أنظف المكتبة وارتميت وأظن يدي مكسورة ولا يوجد اليوم عندي أحد من القرية وأخبرت أخي منصور برسالة على الفيسبوك وقال لي أن أتصل بك.

- طلبت لها الإسعاف وذهبت وريم إلى المشفى وعدنا بعد ساعتين، وكانت تتقن فنون الغذاء فقد طلبت من ريم أن تحضر لها في اليوم التالي ما يساعد في سرعة الشفاء

كالسمسم والحمام والكوسا والبيض البلدي لتشربه مع المنهكات نيئاً وهو فعال جداً في ترميم الكسور وفعلاً خلال شهر استعادت عافيتها وعملت الفطائر التي كانت تعلم سابقاً محبتي لها واجتمعنا في بيت العائلة مع ريم وأريج.

فكرت جدياً بعرض الدكتور وسهرت ليالٍ أدرس كلام أخيها.

- في رأس السنة ذهبت ابنتي وزوجها وريم إلى لقاء العائلة كل العائلة في بيروت وطلبا مني أن أرافقهما لكنني رفضت وبقيت وحيداً، كما ولدتني أمي وكانت أمل وحيدة أيضاً أسرعت قبل الازدحام وطرقت بابها وخرجنا.... وكما تشتري قميصاً استيقظت بعد أسبوع بجانبي امرأة شابة هي الزوجة الثالثة لجابر الطيب أستاذ التاريخ.. ضحكت في سري مزهواً، عندما اتصلت هبة وقالت إنها ستعود بعد أيام، تلبكت ولكنني أخبرتها بزواجي ضحكت وقالت: لم تنجب بعد بلا شك سأعود يتسع صدرك مثل سورية للجميع غريب أمرنا نحن الرجال لا تظهر قوتنا الحقيقة إلا أمام ضعف النساء.

- ولا يمكن أن أعيش شهر عسل كالشباب، فدعوت بعض الأصدقاء لسهرة لنتناول بعض الأمور السياسية.
-لا تقل أنّكم تفكرون بانقلاب أو ما شابه.
-جننت انقلاب وهل يوجد أفضل من الموجود؟ الله
- وقع عليها خبر عودة صبا كالصاعقة وكلي الله وامسحي دموعك فلا وقت للبكاء عند جابر، لا أخفي عنكم.
شعرت مثلها برغبة شديدة بالبكاء. قالت والله هذا العالم مجرم باسم الديمقراطية تذبح وتقهر الشعوب وتنتهك وتنهب الأوطان!
وتمارس الديمقراطية كمطب قاتل للشعوب، كما ينهب الشباب عقول الصبايا الضعيفات ما قيمة الديمقراطية عندما تسقط قيمة الإنسان كم تؤرقني هذه الأسئلة منذ حرب العراق وزواجي...
- تعالي لأقبلك ثقي لن أتزوج الرابعة، وسأكون عادلاً معكما..
-أتعلم أنت تذكرني بأبي سأعيش معكم دون النزاع عليك؟

هذا أسلوبك جابر ومنطقك لم تفكر في الثراء رغم امتلاكك لمفاتيحه، وما كان ردم أي مرحلة من حياتك أمراً ممكناً

-جوعتينا... ألا يوجد طعام اليوم.

****

حضر جمع من الأصدقاء يحملون ما يسعدني من الهدايا فقد أحضروا لي أحدث الإصدارات لكتابات تميزت بالعمق والتشويق والمصداقية والجمال.. حبستني معها لشهور بعد تحرري من حفر سالم.

ابتدأت سهرتي بعشاء فاخر من مطعم العم أبو علي المشهور في طرطوس مع طلبيه سمك من مطعم السمك في جزيرة أرواد

-أحد ضيوفي أقحم السياسة مع الكولا بل خلطهما بعد فكاهة لصديقي هاشم وقال:

- والله الرئيس الإيراني سيبيع النفط رغم العقوبات الأمريكية لم يتقوقع على العمياني على الخير وعلى الشر.

هكذا يبقى العرب؟ قل كلمة يا أستاذ موجهاً كلامه للصحفي صديقنا الذي لا يتخلف عن مجالسنا مهما كان مشغولاً.

-لا أفضل أن نسمع من الأستاذ جابر ما كتب من خواطر نثرية عن هذا القتال وعندي الكثير لأقوله فيما بعد.

- قلت في الأمس كتبت هذا النص على صفحتي.

- أعندك صفحة يا ختيار؟ قال لي أحد الضيوف وتابع لم يمر اسمك عندي.

-الحقيقة اسمي على الفيسبوك عمر المختار شخصية أحبها
لم يكن أحد يستمع لمبرراتي فقد أيقظت ضحكاتهم الموتى
-لكنني تابعت لقد كتبت:
-القتال
ضاع العمر وكان فيه بعض من عنفوان وكمال،
وهل يبحث عن مفقود
من تعج خزائنه بالغنائم والطراد والخيال
يقولون أهدأ فقد طمره الركام قريباً على الأطلال
تعيده إلى جعبتك بعد مهرجانات السلام مع بعض الأموال
في اعتقادي والأخبار صار أمراً بعيد المنال
يرسلوننا إلى الحرب ويا عجباً بعضنا يبالي وكثرٌ غير مبال
من أعاجيب حربنا صديقك
وجارك ورفيق صباك يفضلون القتال
وما بقي من العمر يقولون سيضيعونها في النضال
والضحايا لا تحاول عدّهم... حشود من نسوة ورجال
وشباب في مقتبل العمر وأطفال
لا تسأل عن المال

لم يعد البعض قادراً على امتلاك سترة أو سروال
وكأن السوري لم ينسج البروكار والحرائر وكل غالٍ
ارتحل أهلنا متخومين علماً وكساءً وكانوا حقاً رجال
يجتمع بنا الغرباء الآن ويناقشوننا ويضعون بيننا كثبان الرمال
يستقدمون مقاتلين يوهمونهم بأنهم أبطال
من الشرق والغرب ومن اليمين وكثر من الشمال
ويشّبهنا البعض بفيتنام.. وينادي هيّا للقتال
فلم يبقَ منا أحد مسرور لا صاحب تاج ولا عقال
ويرمونني بالانفعال
وأنا أعي إذا بقيت وجهة الثأر في الأجيال
فعلى الأرض السلام
وقد ضاع مع العمر كلَّ شيء على كِلِ حال.
الله يطيب عيشك قالها الصحفي بتأثر.
-أستاذ العربي جاء من المدرسة التي كنت أدرس فيها حضر ولم أكن قد قابلته مسبقاً لكنه كما قال يسمع بالأستاذ جابر وأراد أن يجالسني قال بانفعالٍ شديدٍ أنا لا أسمي هذا الصنف من الكلام شعر لقد تشوه كل ذي قيمة عندنا قلت له لم أقل شعر.

- قلت أو ما قلت يا أستاذ الشارع ودور النشر كل يوم تنشر من هذه البضاعة لأسماء لا تميز الفعل من الفاعل ولا تاء الفاعل من تاء التأنيث.

قال أسعد: معك حق لكن الأستاذ جابر لا يدعي الشعر، النثر أدب يا جماعة لماذا يقحمونه بالشعر؟

قال الصحفي اليوم معركتنا حقيقة بعيداً عن الأدب والشعر

وليس فقط المعركة الدائرة على الأرض والتي تحرق الجميع المعركة على كل من يقول أنا إنسان وهنا في بلدنا المعركة الكبرى على الجميع ولكن للأسف لم نقتنع بعد أن العدو يدمر الجميع. محزنة حد الألم أوضاعنا.

-همهم صديقي عيسى، غيث ابن عمي مصطفى لا يزورني عادة ولكن سالم طرده من بيت أبيه بعد أن تراكمت عليه الديون لهذا انضم إلى أصدقائي وحضر معهم وكان يخدم كجندي احتياط في معلولا منذ تحررت من فصائل جبهة النصرة التي دخلتها كالمغول وبعد العبث الذي حدث فيها.

-قال: تبين الخيط الأبيض من الأسود ولو كنا كشعب أذكياء لأوقفنا قتالنا جميعاً من لحظة خروج الإرهاب من

معلولا بهدوء لقد تبين للأعمى والبصير أن روسيا وأمريكا والغرب يتفقون عندما لا تتعارض مصالحهم وإلا كيف انسحب المتمردين من معلولا التي تعني للغرب الكثير ولروما مهد ولنا على كل حال إرث والتي مازال سكانها يتكلمون لغة السيد المسيح؟ كيف خرجت منها جبهة النصرة دون قتال.

هرب الصحفي من هذا الكلام وقال: أوربا مشغولة بقضية كاتالونيا وانفصالها عن إسبانيا والعراق لازال يعيش نشوة الانتصارات على داعش بانبهار وعلى البر زاني وقوات البشمركة بإقليم كردستان. والعبادي يريد استسلام الانفصاليين في شمال العراق والقضاء على آخر داعشي في القائم ولكن العاصفة الرملية والعواصف السياسية أعاقت تقدم القوات العراقية والسورية على طرفي الحدود باتجاه القائم والبوكمال ربنا كبير.

وحماس وفتح اتفقتا أخيراً على رفض تمرير صفقة العصر وصفعوا بذلك وجه ورشة البحرين.

أستاذ العربي رشيد وهو والد لشهيدين: وزارة الخارجية السورية هاجمت بعنف الأكراد وعلى الدولة أن تضربهم بيد من حديد يلعن الخيانة ما أبشعها.

قال أحمد وهو عسكري اليوم جاء في إجازة: ترك الأمريكان الأكراد في منبج دون غطاء، مما جعلهم يسلموها للدولة دون قتال، كلعبة الغميضة تابع قائلاً بثقة:

الدولة السورية باقية ما بقيت السماء والأرض وما يجري مسرحية سيسدل عنها الستار يوماً.

أنا مثلك عندي أمل وأقول:

حديقة تأمل
خف بريق الذهب من وجه الطفولة
أرهقها الإعياء
قبل أن يطرق صباحها الباب
أنّت بالعذابات
حلقت بعيدا الضحكات
لا شراب يسد عطشاً
لا طعام يملأ نفساً
دون السلام
فقط الارتواء من عيون
تبرق بالصحة والحنان
كم تحرق العبرات

حين تعانق عيون أوجعها
الفقد والحرمان
ضاعت
في الطرقات
النبض يتكلم باضطراب
عن فلذات الاكباد
والروح ترفرف
ببريق شباب
ضاعت منه الملذات
غصات تملأ المرآة
تحركات الحروف الأولى
للأطفال
وشفاه تعمل جاهدة
بالكلمات
عمر يتسلل كالليل
تشرق الطفولة ويهل
الشباب
المرض والحروب والفقر
تصادر الأحلام

امتحان التحمل صعب بكل اللغات
وليس بيدها الانتصارات
تعجز الحروف عن حمل
التوصيات
يقسم الضمير أن يحيا بنشاط
خوفا من ملك الموت الذي يدق الأبواب
وأمل برحمة تأتي بعنفوان البقاء
الهروب من الموت لا ينفع
مع القدر المكتوب في السجلات
مبضع الحروب يقول كلمته
تجربة امتحان بأسئلة ليس
لها إجابات!
القلوب لا تحمل فكراً تتابع النبضات ...
الحياة جوهرة التكوين
ماذا اراد الله من خلق هذا الكيان؟
غريزة وانفعال، فكر تعطله اللطمات؟
عبادة له في أوقات؟
الشعور بالإنسانية
يمحى كل التأويلات

تتفتح بوابات السماوات
يعود ابن آدم
إلى سيرته الأولى
ويعود ضجيج الحاجات
سلام على الإنسان
في جميع الأكوان.
ليكن السلام خير من القتل والقتال.
نعم بعد أن تقرر أمريكا الخروج من سوريا فإنني على ثقة أن بعض أيام الهدوء لا بد تنتظرنا ثقوا أن كل هذه الفوضى على أرضنا ستنظم هي مجرد عاصفة هوجاء ستشرق الشمس قوية بعدها لتزهر الورود ويتثنى لنا شم عطر الصبايا ونحن نشرب قهوتنا على شرفات مطلة ثقوا بالتاريخ، لن تستمر حرب إلى الأبد.
-الآن لا أصدق بعد أن جمعوا كل من لم يرض بالهدنة في عقر بيته سيقبل بها في إدلب.
يا أستاذ: وهؤلاء الشباب بشر في النهاية وهم الذين حملوا أطفالهم وبندقية وزوجة ومنهم زوجات ولا بيت ولا لقمة عيش إلا ما يقدم لهم هل سيكون لهم رأي؟ يقولون له: صالح يا صالح، سيصالح ورجله فوق رقبته كما

يقولون، ليس عنده خيار وهنا كان ذكاء ممن يحركون لعبة الحرب بأن يبقي بعض الشباب الطائش ورقاً يلعبوا به.
وتلاعب أيضاً من الأتراك ليحموا حدود بلادهم، وربما ليستخدموهم في حرب يشنونها على سورية ككل ويبررون عدوانهم بحجة منع إقامة دولة كردية مستحيلة أقله في هذا العصر، ولن أغير رأيي منذ بداية الحرب أقول لكم: الخاسر الأكبر هؤلاء الذين توهموا أنهم يصنعون ربيعاً إسلامياً وهم كمن يحرق الكعبة دونماً علم أو إدراك وبما أن للكعبة رب يحميها أما هم فقد احترقوا وأحرقونا معهم...

استيقظت أمل على صوت الهاتف الأرضي وكانت قد نامت باكراً جداً لم ترد اكتفت بالإشارة لي فقد كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولم نشعر بالوقت.

- من؟

- أنا سيف يا خالي أرجوك يجب أن تتصل بمعارفك من الأطباء انفجرت قنبلة في بيت سالم وأعطاك عمره وكذلك زوجته الشابة ارتمت من الطابق الثاني ولا أحد يعلم التفاصيل ولكن ابنه مصطفى وميرا كانا في البيت

عنده وقد أسعفنا ابنه إلى المشفى وميرا معي لكنها منهارة تماماً وعلى أبواب ولادة.

- والله لا أعلم من أين ولماذا يقتني هذا المعتوه القنابل نعم.

-أرجوك خالي إنسَ كل شيء أختي مرعوبة على زوجها.

-لا يستحق سالم أي فرحة لهذا أخذه الموت قبل أن يرى حفيده، قلت في نفسي واستغفرت الله لا يجوز على الميت إلا الرحمة.

-اعتن بأختك كل شيء سيكون كما يجب.

وعلمنا من مصطفى أن صراخ تطور إلى عراك بين سالم وزوجته فقتلها بدمٍ باردٍ، ورماها من النافذة ثم فجر بنفسه القنبلة، أسرع ابنه ليوقف جرائم أبيه فلم يتمكن إلا من الحصول على آخر هدايا والده جرح أصابه في يده من بقايا زجاج النافذة المتطاير، والحمد لله كان بسيطاً وسرعان ما شفي.

خلال أيام العزاء أنجبت ميرا صبيها الأول آملين ألّا يرث طباع جده، لم يسمياه سالم خوفاً من أن ينبت سالم جديد.

كانت نهاية تمنيتها له منذ بداية شعوري الذكوري يوم نافسني على وردة حبيبتي. ولن أنسى سهرتنا الممتعة.
يا لسخرية القدر لم نجتمع يوماً كعائلة بسبب سالم وفتن سالم في حياته، لكن كل من بقي حي من عائلتي حضر جنازته إلا ابنتي وأمها لم يتمكنا أو لم تشاءا الحضور.
أنجبت أمل وهبة زهرتين لي قبل الحشد التركي على الحدود.
وما زلنا نبكي في التربة موتانا بسذاجة، ومع التراب وعليه ننتظر من سينبت ليعود إلى بداية التكوين إنساناً جديداً.

تمت
غفران سليمان كوسا

*****

جميع حقوق النشر الورقي
و الإلكتروني محفوظة للناشر